المرأة المسلمة

تأليف

محمد فريد وجدي

دار ابن زيدون
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص ب ١٨٤٦

٢١٠/٤
٢٢٩

المرأة المسلمة

مركز المرأة للدراسات والاستشارات
ت : ٢٤٤٦٠٢٢
ت.ف: ٢٤٤٦٠٣٣
ترخيص رقم : (٧١)

تأليف
محمد فريد وجدي

دار ابن زيدون
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان ص.ب ٧٨٤٦

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

دار ابن زيدون للطباعة والنشر والتوزيع

شارع الاستقلال - تلفون ٣٦٨٥٩٤/٢٢٥٨٨٨/٢٥٥٤٥٤ - برقياً: جابكرم - ص.ب ٧٨٤٦ - بيروت (لبنان)

Istiklal st.- Phone 368594 - 225888 - 255454 - cable: jabahabkoum - ✉ 7846 beirut (lebanon)

الله

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله على افضاله ورحمته . والشكر له على ما حبانا من سابغ نعمته . حمداً وشكراً يوجبان لنا الزلفى من حضرته . ويستنزلان علينا روح قوته . ويستدعيان لنا الزيادة من منته . والصلاة والسلام على ترجمان نواميس حكمته . وخلاصة ابداعه فى خليقته . مظهر نور قدسه وعظمته . ومجلى اسرار ملكوته لحملة امانته . سيد الوجود بتفصيله وجملته . وسنى نور الكون وحقيقته . محمد عبده ورسوله وصفوته . وعلى آله وصحابته . وتابعيه

ومؤيدي شريعته آمين

أما بعد ، فاني بصفتي عضواً من الامة الاسلامية رأيت ان لى حق ابداء رأيي على مسئلة المرأة . تلك المسئلة التى تكاتف محبو الترقى اليوم على تمحيص حقائقها والوقوف على اقوم طريق لتهذيبها واستخرت الله تعالى فى درس هذه المسئلة العمرانية الهائلة درساً مناسباً لدرجتها من الاهمية والخطارة من سائر وجوهها ليكون العالم القارىء على بينة تامة مما يريد ان يعمله او يحجم عنه

ولعل فى القراء من يظن ان المسئلة اصغر من ان تحتاج الى كتاب ويرميني بالاسهاب او الشرود عن موضوع البحث ولكنى متحقق ان الاغلبية ستعطيني الحق فى هذا الشرح الضافى وتود لو انى توسعت باكثر من هذا لعلمها بأن المسئلة جديرة بدقة النظر خليقة بأن تسمى مسئلة المسائل كلها لما بينها وبين سائر اصولنا الحيوية من العلاقة الاكيدة

نعم ان بعض الناس لم يزل يستبعد ان تكون مسئلة

المرأة ذات اهمية لهذه الدرجة حتى انه يوم ان بدأ حضرة مؤلف تحرير المرأة[1] في ابداء افكاره ظلوا يتساءلون : ألا كان يوجد امام مثل حضرته من اجلاء النشأة الجديدة موضوع ادعى للعناية والاهتمام من هذه المسئلة : ألا كان البحث فى تحسين حال الرجال اولى من البحث فى تحسين حال النساء ؟ ولكن الواقفون على اسرار تقدم الامم واسباب انحطاطها — وليسوا بالقليلين فى عصرنا — يعلمون جيداً ان الامم تترقى برجالها لدرجة معلومة ثم تنشأ فيها مقتضيات خاصة تستدعى ان تكون المرأة ذات شأن كبير فى تكميل الامة وتحسين حالها الاجتماعية ونحن مع اعترافنا بهذه الحقيقة وامكاننا البرهنة عليها اذا اقتضى الحال ذلك نخالف كل قائل بلزوم احتذاء شاكلة اى امة من الامم الاخرى فى اي شأن من شؤوننا الحيوية وخصوصاً فى شأن النساء . لاننا رأينا بعد طول البحث والتدقيق واستقراء ماجريات الاحداث التاريخية انه يجب ان يوجد بين الامة المقلّدة والامة

(١) الكلام عن قاسم أمين وكتابه تحرير المرأة .

المقـلَّدة تناسب فى حافظتيهما الرئيسيتين ليكون ذلك التناسب كافلاً اميناً لعدم تغلب اقواهما على اضعفهما وتحليل عناصرها . لانى لا أعرف التقليد فى عرف العمران الا استعداد الامم الضعيفة لقبول مؤثرات الامم القوية والاستسلام للتحرك بحركتها . ولا يمكن ان تؤثر تلك المؤثرات عليها او تعمل فيها تلك الحركة عملها المطلوب الا باماتتها كل مقاومة تقف فى سبيلها . وحينئذ تعدو الامة القوية على الضعيفة فتحللها تحليلا وتمثل عناصرها بجسمها تمثيلا . بخلاف مالو كان بين الحافظتين الرئيسيتين تناسب فانه لا يوجد بينهما تنازع ما فتقبل احداهما ما تقبله من الاخرى بدون خطر على كيانها . والناظر فى احوالنا بنظر العمرانى المدقق يجد حافظة امتنا الرئيسية لا تشابه من كل وجه حافظة اى امة من الامم التى يراد ان نحتذى مثالها فى شؤوننا الحيوية فتكون النصيحة بالتقليد بناء على ما قدمنا نصيحة بالاستخذاء للتلاشى

تقرر فى علم العمران ان الرقى الحقيقى للامم لا يتأتى

الا من ذاتها لا سيا اذا كان لا تناسب بينها وبين الامم المرتقية من جهة الروابط الحيوية . الا ترى تلك الشعوب التي فنيت في امريكا عقب اختلاطها بتمدني اوروبا منذ القرن الخامس عشر ؟ ماالذي افنى تلك الامم وما الذي منعها من الاستفادة من مجاورتها للامم المتمدنة الآخذة بمذاهب الرقي المادي غير ما ذكرناه من الاسباب الاجتماعية ؟ وهذه الممالك المتحدة الاميريكية صارت اليوم آهلة بنحو سبعين مليوناً من النفوس كلهم من المهاجرين اليها بعد اكتشافها فهم انجليز والمان وفرنساويون وايطاليون ومن كل امة اوربية اما اهلها الاصليون فلا يزالون متوحشين آخذين في النقص يوماً بعد يوم حتى لم يبق منهم الا بضع مئات من الالوف . لم هذا ؟ أليس للسبب الذي ذكرناه آنفاً ؟

كلامي هنا خاص بالتقليد في الشؤون الحيوية اما الامور الصناعية فانها لا تتأتى الا به ولا عار على امة من ذلك كما لا خوف على كيانها من الفساد بسببه

اذا تقرر ما مضى كله فليسمح لنا المتكلمون فى الشؤون العمرانية ان نرجوهم فى ملاحظة هذه القاعدة دائماً فى نصائحهم الاجتماعية ملاحظة دقيقة جداً فانها امسّ شيء بحياة الامة ولا يكونن كالطبيب يطبق علاجاً واحداً على مرضى ذوى امزجة متعاكسة واستعدادات متفاوتة فان نتيجة ذلك لن تكون الا الاهلاك بدل الابراء لامحالة . وهناك ملاحظة اخرى نحب ان يراعيها حضراتهم كل المراعاة وهى ان المدنية العصرية مهما كانت تأخذ باللب ظواهرها وتستوقف النظر مرائيها فان فيها امراضاً عنصرية قتالة فليحذر عمرانيونا من الاغترار بتلك المظاهر الفتانة وليتشجعوا على اتهام ابصارهم وليتنزلوا فيسألوا بُناة تلك المدنية انفسهم عن حقيقتها ليروا ونحن الضامنون لهم ان آسر شيء لافكارهم منها فيه علة عضوية مهددة لكيانها بالانحلال . ونحن بغاية الاسف نرى ان تلك المدنيه تفتن الشرقيين لدرجة اصبحوا يعدون مقابحها التى ءسجع اصحابها منها كمالات

يجب علينا الاخذ بها وبذل النفس والنفيس فى السعي اليها ويتصامون عن صيحات ذويها وأناتهم وقد كادت تلك الصيحات والانات لا تدع صماخاً سليماً بين البشر

قضى علينا بهذا الافتتان فى كل شأن من شؤون تلك المدنية الى ان صرنا لا نحسن تقليدهم حتى فى الوقت الذى ندعى اننا مقلدون لهم فيه

نرى عدداً جماً منا يتكلم فى علم العمران والفلسفة ولكن على غير بينة منهما او بعبارة اصرح بغير تفريق بين اوجه تطبيق اصولهما على احوالنا واحوال غيرنا من الامم . لذلك نرى انه ان صاح صائح من عمرانيي تلك المدنية بلزوم مواساةعلة لديهم ردد صداه عندنا عمرانيونا الوطنيون وضربوا على نفس ذلك الوتر وربما غلوا فى الشكوى كأن جسمنا وجسمهم واحد اذا اشتكى عضو لديهم تداعت له سائر اعضائنا بالحمى والسهر . وان نادى فيلسوفهم بلزوم تبديل بعض مدركاتهم رجع زجرته فيلسوفنا حرفاً بحرف كأن مدركاتنا ومدركاتهم صبت

فى قالب واحد . لهذا السبب تذهب كتاباتنا ادراج الرياح ولا تحدث من التأثير عشر ما يجب ان تحدثه واعتماداً على هذا الاثر يذهب بعض الناس ان الامة المصرية اصبحت ميتة لا تحس بشيء ولا يفيدها دواء مع ان الحقيقة غير ذلك على ما أعلم . فان الامم كالافراد من حيث العلاج فكما لا يؤثر فى الفرد الواحد الدواء غير المناسب لمزاجه وتركيبه وسنه بل ربما اضره كذلك لا تؤثر النصيحة الاجتماعية فى الامة اذا كانت غير منطبقة على مرض الامة وقابليتها

اراانا اليوم بازاء مسئلة مهمة جداً لها تأثير كبير على احسان مستقبلنا وهو تهذيب المرأة المسلمة تهذيباً مناسباً لحالة العصر ولكن كيف السبيل للوصول اليه ؟ يرى بعضنا ان السبيل اليه هو اقتفاء اثر المرأة فى المدنية المادية فى كل حيثية ويجد فى طريق اشراب النفوس هذه الفكرة ولكن يجب على الباحث ان يسأل نفسه قائلا : هل يتأتى ذلك يوماً من الايام ؟ وهل هناك

علامة تشير الى امكان تأتيه فى مستقبل قريب ؟ اذا ألقى احدنا هذا السؤال على نفسه واستقرى ما بين يديه من الحوادث المهيئة رأى ان الوصول اليه ضرب من المستحيل لانه يرى بأقل تأمل ان جسم الامة غير مستعد لقبول هذا الدواء اصلا بما يظهره من الاباء والتعاصى وليس هذا الاباء والتعاصى الا علامة عملية على ان الدواء يحتوى على مركبات لا تنطبق على مزاجه مطلقاً ولن تنطبق عليه الا اذا اكتسب مزاجاً آخر . وما فائدة الطبيب من تغيير مزاج المريض تشيعاً لدواء خاص ما دام مجال الطب اوسع من ان يكون قاصراً على دواء واحد . واذا اضفت الى ذلك الاباء احساس من المريض بان هذا الدواء سيحال اجزاءه ويبددها فكيف يطمع الطبيب فى اشرابه له وارغامه على اتباع شروطه ؟ ثم اذا زدت على هذا كله ان المريض يسمع انين الذين طبق عليهم هذا العلاج من قبله ويرى بعينيه حيرة اطبائهم فى كيفية تغيير تركيبه فكم يكون مقدار اليأس من

قبول مريضنا له ؟

هـ - هذه ملاحظات مهمة لا يجوز للعمرانى اغفالها بوجه من الوجوه كما لا يجوز لبعض الناس ان يحكموا على الامة المصرية بالموات وعدم التأثر لمجرد تعاصيها عن العمل بنصح الناصحين بعد ما تبين لنا ان كثيراً من هؤلاء يريدون ان يطبقوا عليها علاجاً غير مناسب لمزاجها وتركيبها بل يحسن بنا بالعكس ان نعد ذلك التعاصي دليلا على ان فيها من الحياة بقية تمنعها من الاستسلام لتجارب المجربين

بناء على هذا وعلى تعطش الامة اليوم لمعرفة خير سبيل لتهذيب بناتها تهذيباً ملائماً لتركيبها رأينا ان نتكلم على حقيقة المرأة ووظيفتها ومواهبها وطريق كمالها مستندين على مقررات العلوم الصحيحة المجمع عليها وان نثبت للناس عموماً بالتحليل العمرانى الدقيق ان الحجاب ضرورى لها ليس لعدم الثقة بها ولكن لكونه الضمانة الوحيدة لاستقلالها وحريتها بشهادة التاريخ وماجريات

الحوادث الاجتماعيــة فى العالم وان نرد على كل شبهة قامت فى سبيل هذه المدركات العلمية او وجهت الى مبنى المدنية الاسلامية وقد برهنا ان هذه المدنية هى الشكل الوحيـد من كمال الاجتماع البشرى الذى يتقرب منـه البشر يوماً بعد يوم واقمنا الادلة من تحقيقات عمراني الامم انه لا توجد امة فى هذا العصر يجوز اتخاذ نظامها فى تربية البنات منوالاً ننسج عليه واستخرجنا من كل هذا المجموع ما يجب ان تكون عليه المرأة فى الامة المتمدنة فتجلت لنا المرأة المسلمة مثال الكمال النسائى ونموذج الرقى الجنسى بشهادة الطبيعة والتاريخ مما يجب ان تقتاس بها نساء العالمين كما اقتاس رجالهم برجالها من قبل

لهذا نرجو الله تعالى ان يكون كتابنا هذا القاعدة الاساسية لتهذيب المرأة المسلمة والباعث القوى للآباء على تربية بناتهم ليصح ذلك دليلا عملياً على صدق ماقلناه من ان المصريين لا يمتنعون عن تناول الدواء متى لاح

لهم انه ملائم لتركيبهم مناسب لطبيعتهم والله يهدى من يشاء الى سواء السبيل ، وصلى الله على سيدالوجود محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الفصل الاول

ماهي المرأة

المرأة كائن شريف خصصتها القدرة الالهية لتكثير النوع الانسانى فوظيفتها من هذه الحيثية سامية جداً ولا يستطيع ان يجاريها الرجل فيها بوجه من الوجوه . وقد متمها الله تعالى لحسن اداء هذه الوظيفة بكل ما تحتاج اليه من الاعضاء وناسب بين تركيبها وتلك الوظيفة بحيث ترى ان كل شيء فيها يدل على ان القدرة الالهية قصرتها عليها ولذلك نرى بين جسمها وجسم الرجل من الاختلاف والتباين ما ينطق بالبداهة انهما لم يخلقا لان يتسابقا فى مجال واحد البتة

جاء فى دائرة معارف القرن التاسع عشر تحت لفظة امرأة ما يأتى : « لا تختلف المرأة عن الرجل باختلاف شكل اعضاء التناسل فى كليهما فقط . نعم لا شك فى ان تلك الاعضاء هى اكبر الاختلافات التى بينهما ولكن كل الاعضاء الاخرى حتى التى تظهر انها اكثر تشابهاً فيما بينها ترينا تغايراً خاصاً » . ثم اخذت تقارن بين كل الاعضاء مقارنة علمية مبنية على الامتحان التشريحي الدقيق حتى قالت : « ان تركيبها الجثمانى يقرب من تركيب الطفل ولذلك تراها مثله ذات حساسية حادة جداً وتتأثر بغاية السهولة بالاحساسات المختلفة كالفرح والالم والخوف وحيث ان هذه المؤثرات تؤثر على تصورها بدون ان تكون مصحوبة بتعقل فلذلك تراها لا تستمر لديها الا قليلا ومن هنا صارت المرأة معرضة لعدم الثبات »

وجاء فى هذا المجلد نفسه : « يعلم الناس اجمع ان المرأة قد وهبتها الطبيعة حباً حاداً لكل شىء لامع

ولكل ما يزينها ويزيد من جمالها وهذا الحب فى ذاته يظهر انه شرعى محض لان كل شىء فيها. يجعلها محتاجة للتزين وليس ذلك فقط بالنسبة لتركيبها الطبيعى ولكن بالنسبة لوظيفتها الاجتماعية أيضاً وهى الوظيفة التي لا يمكن ان تؤديها الا بالجاذبية التي توحيها الى النفوس وانها تعرف ان قوتها تتعلق بهذه الجاذبية. ولذلك فان كل شىء ينفع للزينة يؤثر عندها تأثيراً شديداً لا تقاومه الا بصعوبة ويوقظ لديها كل اميالها حتى ان اعقلهن واطهرهن لا تستثنى من هذه القاعدة »

وقال الفيلسوف الاشتراكى الشهير (پرودون) فى كتابه (ابتكار النظام) ما يأتى : « ان وجدان المرأة أضعف من وجداننا بقدر ضعف عقلها عن عقلنا ولا خلاقها طبيعة اخرى غير طبيعة اخلاقنا فالشىء الذي تحكم عليه بالقبح او الحسن لا يكون هو عينه ما يحكم عليه الرجل كذلك بحيث ان المرأة بالنسبة

الينا يمكن أن تعتبر غير مؤدبة . لاحظها جيداً تر انها اما مفرطة او مفرّطة فى جنب العدالة فان عدم المساواة خاصية نفسها . ولا ترى عندها الميل لتوازن الحقوق والواجبات وهو الميل الذى يؤلم الرجل ويسوقه ان لم يحصل عليه الى الدخول مع امثاله فى نزاع شديد . فالشيء الذى تحبه اكثر من كل شيء وتعبده هو الامتيازات والخصوصيات . اما العدالة التى تسوي بين صنوف البشر فهى بالنسبة للمرأة عبء ثقيل لا تحتمله »

هذه اقوال دائرة معارف القرن التاسع عشر وفيلسوف اشتراكي من كبار فلاسفتهم فقول (ماتجازا) الذى استشهد به حضرة مؤلف (المرأة الجديدة) لا يقام له وزن فى هذا الموضوع ولا يعد الا كما تعد افكار الآحاد بالنسبة للاجماع لان دوائر المعارف هى زبدة معارف العصر ومصاص ابحاثه العملية . وغاية ما اقوله أنا ان كل هذه النقائص التى يلوثون بها اخلاق المرأة

لم تنشأ الا من حيدانهم عن الناموس الحقيقي فى تهذيبها كما سيمر بك ان شاء الله من ذات اقوالهم ولكن اذا اتبع البشر ناموس التربية الاسلامية الحقة فلا يمكن ان تكون المرأة مثال الظلم والعسف ومشغوفة متلهبة على الزينة والتبرج كما يصفونها فى بلادهم فان فى المسلمين نساء — مهما كان عددهم قليلا جداً — تركزت فيهن كمالات جنسهن ونمت لديهن غرائزهن الشريفة بتأثير التقاليد الاسلامية فصرن حياة عائلاتهن ومنبعث سعادة اولادهن ومحل اعجاب بعولتهن حتى يستطيع (البسيكولوجى) العارف بعلم النفس ان يحكم بدون تردد بانهن نموذج صادق شاهد للكمال النسائى وان التقاليد الاسلامية قالب مشكل على حسب فطرة النساء بحيث لو انصبت فيه ملكاتهن ومواهبهن وتركت ونفسها بعد ذلك لكان للمرأة المسلمة شأن عجيب ولكانت مستثناة ولا شك من احكام دوائر المعارف وفلاسفة الاخلاق فى اوروبا مما لو شئنا لاتينا على كثير مما قرره علماؤهم فى

هذا القرن نفسه ولكنا اكتفينا بما قررته دائرة المعارف ليكون شاهداً عدلاً من قبل العلم الرسمي الاجماعي المنزه عن الخيالات ان المرأة لم تزل هناك موضوع الاحكام القاسية من الفلاسفة ولكيلا يستطيع الشرق ان يصدق بسهولة ما يكتبه بعض المتنصرين لهن في اوروبا من الرجال بقصد الشهرة واستلفات النظر ولاغراض اخرى وقد تكلم عنهم الاستاذ الكبير (اجوست كونت) مؤسس الفلسفة الحسية وعلم العمران فوصفهم في كتابه المسمى (النظام السياسي على حسب الفلسفة الحسية) بانهم رجال ذوو اهواء حتى انه نسبهم الى الهوس وفساد القلب فقال بالحرف الواحد : « كل ادوار الانتقالات

الاجتماعية قد ولدت كما في زماننا هذا ضلالات خيالية على حالة النساء الاجتماعية . ولكن القانون الطبيعي الذي يخصص الجنس المحب (النساء) للحياة المنزلية لم يتغير ابداً تغيراً خطراً . فان هذا القانون صحيح ومحقق لدرجة انه ساد من تلقاء

نفسه حتى مع بقاء السفسطات المضادة له بدون دحض . ثم قال : ومهما كان حرماننا اليوم من اسس اجتماعية حقيقية (الرجل يتكلم بالحق) اكثر مما كنا فى وقت الانتقال من الحالة الوثنية الى الحالة التوحيدية فان العقل الانسانى فى مقابل ذلك والاحساسات القلبية صارت اكثر كمالاً وشعوراً . فان النساء فى ذلك الزمان كن فى هبوط لا يسمح لهن ان يدحضن كما يجب عليهن ولو بسكوتهن الضلالات الدكتورية التى جاء بها الذين يزعمون الدفاع عنهن أولئك الذين كانوا يحاربون فى الواقع ونفس الامر العقل نفسه ولكن بالنسبة للنساء الحاليات فان الحرية السعيدة عند غربياتهن [1] تسمح لهن باظهار كراهتهن النهائية التى تكفي عند عدم وجود الردود العلمية لمنع انتشار

---

(١) يريد (اجوست) الحرية المعقولة بعد ذلك الاستعباد الهائل لا تلك الحرية المطلقة وسيمر بك من اقوال هذا الفيلسوف ان المرأة لا يمكنها التخلص من سيطرة الرجل

هذا الحذر العقلي الذي اوحته القلوب المفسودة . فان احساس المرأة اليوم هو الذي يحتوي وحده على المصائب العملية التي يجب ان تكون هي التي ولدت هذه الاميال الفوضوية . فان البطالة تزيد هذا الخطر خطراً عند طبقاتنا العالية التي فيها يؤثر الغنى تأثيراً سيئاً للغاية على حالة النساء الاخلاقية »

فليحذر اخواننا الشرقيون من تصديق بعض قصصي اوروبا فانهم انما يكتبون امثال هذه الخيالات المفسدة لترويج لدى النساء ليكتسبوا ميلهن وأولئك المسكينات لا يعلمن ان نصائح أولئك الكتاب تهلكهن اهلاكاً وتجعلهن اشد اسراً كما سيمر بك ان شاء الله من اقوال علماء تلك المدنية

الفصل الثاني

ما هي وظيفة المرأة الطبيعية

للمرأة فى الحياة الانسانية وظيفة سامية للغاية وهى حفظ النوع البشرى واستدامته مما لا يتأتى للرجل ان يشاركها فيه لانه يتعلق بشكل التركيب الجسمى الامر الذى لا يمكن التحصل عليه بالتصنع ولا التقليد . هذه الوظيفة الخاصة بالمرأة لها جملة ادوار تتعاقب عليها ولكل دور منها لوازم لا تزايلها يجب الالمام بها لندرك اهمية هذه الوظيفة وخطارتها . فهى تستلزم الحمل والوضع والارضاع والتربية ومن يتأمل فى هذا الوجود البديع تأملاً بسيطاً يتجلى له ان لكل كائن فيه وظيفة يتوقف كماله الشخصى والنوعي على حسن ادائها . وقد يحصل ان كائناً من الكائنات يخرج عن حدود وظيفته ولكن يبعد عن الكمال بقدر بعده عنها ويؤثر على مجموع نوعه

على نسبة ذلك . وحيئذ يجب ان يعتبر ذلك التحول منه عن وظيفته الخاصة فساداً يستدعى الملافاة بالطرق الحكمية

اذا تقرر ذلك لزمنا ان ندرس ماهى حدود وظيفة المرأة لنعرف ماهو كمالها بحسن تأديتها لها وماهو نقصها بخروجها عنها

قلنا ان وظيفة المرأة تستلزم أربعة ادوار : حمل ووضع وارضاع وتربية ، ولكن ما ذا يفيد هذا الاجمال بالنسبة لهذه الاحوال الاربع التى وضع العلماء فى شرحها قديماً وحديثاً من المؤلفات ما لا تكفى عدة صفحات لسرد اساميها فضلاً عن التعمق فيها ؟ فمن يبلغ عنى تلك المرأة الحامل التى تحشر نفسها فى زمرة المضربين عن العمل بانها انما تعرض نفسها باستهدافها للوكز والدفع الى أشد الاخطار على حياتها وحياة جنينها : : ومن يبلغ عنى تلك المرضع التى تصيح وتنفعل انتصاراً لرأيها السياسى انها بذلك الانفعال النفسى تفسد لبنها فتسقى ولدها منه

سماً زعافاً ربما قضى على حياته القضاء المبرم !! ومن يبلغ عنى تلك الأم المحامية التى تقضى طول نهارها فى المدافعة عن مجرم لتخفف ويلات العقاب عنه ومعظم ليلها فى جمع المستندات وتنقيب شروح الشريعة انها باهمالها التعمق فى علم التربية تسىء آداب ولدها من حيث تظنُّ انها تحسنها فيشب شريراً وقيحاً ثم لا تستطيع ان تبرئه عند المحاكمة بفنونها الجدلية ؛ ! أليست هذه الامور كلها تمرداً على نواميس الطبيعة وعصياناً لاحكام مكونها ؟ أليست اهمالا من المرأة لشؤون وظيفتها الطبيعية التى يتوقف عليها كمالها وسعادتها واشتغالاً بما يضرها هى ومجتمعها لابعاده اياها عن كمالها الذى لا يتم كمال المجتمع الا به ؟

نحن نقول هذا الكلام وسترى فى فصولنا الآتية تلك الشكاوى المرة التى يبديها عمرانيو ذلك العالم المتمدن من جراء اشتغال النساء باشغال الرجال والفساد الذى جررنه على كيان تلك المدنية . هنا يرد علينا سؤال وهو :

هل تستطيع المرأة ان تبلغ الكمال في وظيفتها الخاصة مع مشاركتها للرجل في وظيفته الخارجية ؟

نقول اما في مدة التسعة اشهر من الحمل فلا تستطيع المرأة احسان عمل من الاعمال مطلقاً بل هي لا تؤدي وظيفتها المنزلية الا بمشقة وخطر لان جنينها في تلك المدة يدخل في ادوار مختلفة ولكل دور منها آثار تبدو عليها واعراض لا تفترق عن اعراض الامراض في شيء لانها نتيجة تفاعلات باطنية تؤثر على مجموع البنية تأثيراً يختلف باختلاف طبيعة الجسم نفسه من قوة وضعف

لهذا الدور من ادوار حياة المرأة شرائط صحية كثيرة يجب على الحامل ملاحظتها بالدقة وتطبيقها على سائر اطوار الحمل المختلفة لتخرج منه هي وولدها سليمين والا فتكون قد عرضت نفسها لاخطار قد تذهب بحياة فلذة كبدها وحياتها دفعة واحدة

يقول الاطباء ولما كانت مدة الحمل في الحقيقة حالة

مرضية فيجب على اهل الحامل ان يعاملوها بمزيد الرعاية مع ابعادهم عنها كل ما يكدر افكارها او يعارض مزاجها لتأثير ذلك كله على صحتها وصحة جنينها . وان يحتملوا ما يبدو منها من حدة الخلق وشدة الانفعال لانها تكون مكرهة على ذلك من جراء الاضطراب العصبي الذى يلازم تلك الحالة

اما دور الوضع فهو دور شديد الهول كثير المخاوف تتعرض فيه الحامل لآلام حادة وتقع بعده فى مرض حقيقي وضعف شديد وقد افرد الاطباء لهذا الدور كتباً ضخمة ملأى بما يجب مراعاته نحو الوالدة من القواعد الصحية التى تكفل نجاتها من الحميات الكثيرة الانواع التى تهددها فى ذلك الحين

اما دور الارضاع فهو وان كان اقل خطراً من الدورين السابقين بالنسبة للام الا انه اشد خطراً بالنسبة للطفل فان له قواعد مخصوصة وقانوناً يجب مراعاته تمام المراعاة لان اسراف الام فى اكلة متبلة

ربما جرت على طفلها نزلة معدية أوردته حتفه او ربما اكثرت من ارضاعه بغير تدبير فسببت لديه تخمة تنكد عليها حياتها وحياة اهل بيتها اجمعين . وليس الامر قاصراً على هذا فان الطفل يحتاج من يوم ولادته الى يوم فطمه لملاحظة شروط جمة بالنسبة لتغذيته وكسوته وتنظيفه لو أهمل منها واحد أثر على المولود تأثيراً سيئاً ولو كان فى بلادنا احصائيات كاملة لعلمنا منها ان اكثر الاطفال يموتون من جهل الامهات بشروط التربية الطفلية

اما وظيفة التربية فهي من اقدس الوظائف وادعاها للعناية والاهتمام . فان الطفل عندما يخرج من ذلك العالم الغيبي تكون مرآة نفسه خالية من جميع الصور مبرأة من جميع الشوائب الاخلاقية والمعائب النفسية وقابلة لان ترسم كل صورة عرضت اليها على علاتها ولكل من هذه الصور لوازم وآثار تؤثر على وجدان الطفل عندما يشب وتسوقه رغم انفه الى الوجهة التى تهيئها له . فما الجبن والشجاعة ، وما الكرم والبخل ، وما

البشاشة والعبوس ، الى غير ذلك من الفضائل والرذائل في الانسان الا آثار تلك الصور التي ارتسمت في مخه وهو خالي الذهن من كل شيء . فاذا كان الناس قد اعتادوا على ان ينظروا الى من ورث مالاً فأساء التصرف فيه بعين الآسف المتلهب فكم بالأولى يجب عليهم ان ينظروا بتلك العين الى الام الجاهلة بشرائط تلك التربية بل شتان بين كنز يبذر وبين نفس كريمة تقتل قتلا ادبياً فيشب صاحبها رغم انفه جائحة على بني جلدته ومصيبة على اخوان ملته او بالاقل غير نافع لقومه وعشيرته مع انه لو كان ممن اسعده الحظ فأحسنت امه تربية مواهبه وتنمية ملكاته لشب وهو واحد من أولئك الافراد الذين تسعد بهم الامم وترقى بهممهم الى اوج الجلال والعظم

فهل يأتي على الناس زمان يدركون فيه هذه الحقيقة الجليلة فيلقون على الامهات هذه المسؤولية العظمى ؛ وهل يأتي عليهم حين يعلمون فيه ان فن التربية ليس من

الفنون البسيطة التى تتعلم فى شهر او شهرين بل تقتضى سنين طويلة لانها تتناول معظم العلوم النفسية وكيفية تربية الملكات ومعالجتها بالطرق الحكمية؟ وهل يأتى عليهم وقت يعرفون فيه ان هذه العلوم لاتساع موادها وتشعب فروعها لا تدع محلاً من المخ لحساب المثلثات وقضايا الرياضة العالية وكيفية فصل الكاور عن اوكسجينه الا على قدر ما يقيم أود الفكر ويصقل مرآة البصيرة

هذه هى وظيفة المرأة وهذا هو كمالها فيجب علينا ان نعمل كل ما يمكننا لتتقرب المرأة من كمالها وتدخل الى حدود وظيفتها وان نعتبر ان كل ما يبعدها عن هذه الوظيفة داء اجتماعى يجب التألب على ملاشاته او بذل الجهد فى حصره فى محله وان نصرح على رؤوس الاشهاد بان كل امرأة مهما قيل انها مكتشفة لنجم او بحاثة فى الميكروبات او معلمة لعلم التشريح او غير ذلك ناقصة وعاصية للطبيعة وخارجة عن حدود وظيفتها وان نكره النساء من احتذاء مثالها لا ان نضرب بها الامثال

وتتخذها مثالا على الكمال

الفصل الثالث

هل المرأة تساوى الرجل جسمياً ومعنوياً

نحن لما كنا نعلم ان سعى المرأة فى الغرب وراء نوال استقلالها المطلق من سلطة الرجال هو سبب كل ذلك الافراط الذى سندرس بعض آثاره المحزنة فى هذا الكتاب وان هذه النزعة ربما انتقلت الى الشرق بطريق العدوى تحت تأثير التعاليم المضرة رأينا أن نقيم الحجة في هذا الفصل على ان ذلك الاستقلال المزعوم ضرب من ضروب المستحيلات الطبيعية وان الساعى فى تحقيقه كالساعى فى تغيير اوضاع نواميس الكون وهو مسعى يساوره الاخفاق من كل جانب فنقول :

اثبت علم التشريح ان الرجل اقوى من المرأة جسما من سائر الحيثيات وبدرجة محسوسة جداً حتى ذهب

بعضهم الى أن المرأة الحالية ليست انثى الرجل الحالى بل هى انثى كائن آخر يشبهها فى تركيبها وضعفها وان ذلك الكائن قد انقرض بمزاحمة الانسان له فى الحياة فتغلب على اناثه التى من نسلها المرأة الحالية (انظر دائرة المعارف الكبرى تحت عنوان مرأة)

هذا الفرض وان كان تطرفاً من بعض العلماء الا انه يدلنا على عظم الفرق بين هذين الكائنين كما نبينه تفصيلا وهذا الضعف لا نتخذه نحن دليلاً على حقارة قدر المرأة ولكن عنواناً على حكمة « ربنا الذى اعطى كل شىء خلقه ثم هدى » فانه جلت قدرته كما قضى على المرأة باداء وظيفة خاصة لم يهبها الا ما يلائمها من الاستعداد والقوى كما يقول جل جلاله « انا كل شىء خلقناه بقدر » وكما يقول علماء الطبيعة : « ان الطبيعة غير مسرفة »

اما ذلك الفرق بين الرجل والمرأة فهو: أثبت العلم بالتجربة ان متوسط طول الرجل يزيد عن متوسط طول المرأة باثنى عشر سنتيمتراً . هذه الزيادة تشاهد

عند المتوحشين كما هى عند المتمدنين وعند الاطفال من كلا النوعين ايضاً . واما من جهة ثقل الجسم فان متوسطه عند الرجل سبعة واربعون كيلو واما عند المرأة فلا يزيد عن اثنين واربعين ونصف . واما من حيث المجموع العضلى فانه عند المرأة اقل كمالاً منه عند الرجل بكثير . قال الدكتور (دوڤاريني) فى دائرة المعارف الكبيرة عند ذكره هذا المجموع « انه اقل حجماً واضعف منه عند الرجل بقدر الثلث وحركاته اقل سرعة واقل ضبطاً » اما القلب وهو مركز القوة الحيوية فانه عند المرأة اصغر واخف بمقدار ٦٠ جراماً فى المتوسط . واما الجهاز التنفسى فانه لدى الرجل اقوى منه لدى المرأة فقد ثبت ان الرجل يحرق فى الساعة ١١ جراماً تقريباً من الكربون واما المرأة فلا تحرق منه الا ٦ وكسراً ولذلك فحرارة المرأة اقل من حرارة الرجل

اما الحواس الخمس فقد اثبت الاستاذان (نيكولس وبيليه) انها اضعف عند المرأة منها عند الرجل . فهى

لا تستطيع ان تدرك رائحة عطر الليمون على بعد مخصوص الا اذا كانت ضعف المقدار الذى يدركه الرجل فيه . وشوهد بالامتحان ان المرأة لا تدرك رائحة حمض البروسيك المخفف الاعلى نسبة $\frac{١}{٢٠٠٠٠٠٠٠}$ اما الرجل فيدركها على نسبة $\frac{١}{١٠٠٠٠٠٠٠٠}$ اما حاسة الذوق والسمع فان الرجل ادق من المرأة فيها بكثير ويكفيك دليلاً على ذلك ان اهل الخبرة في تمييز الطعوم ونقد الاصوات وتوفيق نغمات البيانو كلهم من الرجال كما جاء فى دائرة المعارف الكبيرة

اما حاسة اللمس فقد شوهد ان الرجل ادق من المرأة فيها وقد برهن الاستاذان (لومبروزو وسيرجى) وغيرهما بأن المرأة تحتمل الالم اكثر من الرجل مما يدل على قلة احساسها به

قال (لومبروزو) : « وهذا من حسن حظ »
« النوع الانسانى فان المرأة معرضة لكثير من الآلام »
« كالحمل والوضع وغيرهما ولو كانت حساسة كالرجل »
« لما استطاعت تحمل ذلك كله » يرى مما مر كله ان

المرأة بضعفها اكثر تعرضاً لمصائب الحياة من الرجل واشد استهدافاً لانواع الامراض منه مما يدل دلالة صريحة ان حياتها يجب ان تكون منزلية محضة لا خارجية . قال العلامة (تروسية) في دائرة معارفه : « انه بالنسبة »
« لضعف المرأة ونمو مجموعها العصبي نرى مزاجها اكثر »
« تهيجاً من مزاج الرجل وتركيبها اقل مقاومة من »
« تركيبه فان تأديتها لوظائفها من الحمل والامومة »
والارضاع يسبب لديها احوالاً مرضية قليلة او كثيرة »
« الخطر »

هنا يمكن ان يقول قائل ان ذلك الضعف التشريحي الذى أثبته نتيجة ضغط الرجل على حريتها واجبارها على ملازمة ما يفسد صحتها . نقول : هب ان ذلك صحيح فما سبب رخامة صوتها . على ان من الثابت علمياً ان سكان البلاد الحارة من المتوحشين يكلفون نساءهم باعمال الحراثة والزراعة وغيرها من اول الخلقة الى الآن ومع ذلك فان تلك الفروق تشاهد بعينها بين رجالهم ونسائهم . قال

الاستاذ (دوفارينى) فى دائرة المعارف الكبيرة : « ان هذا الفرق يشاهد عند الپتاجونيين (بعض متوحشى امريكا) كما يشاهد عند سكان باريز » وعليه فلا سبيل للجدل فى هذه القضية

اما من جهة افضلية الرجل على المرأة فى مركز الادراك فما لا مشاحة فيه حيث أثبتها (الپسيكولوجيا) (علم النفس بالتجربة) فقد شوهد انه يوجد فارق جسيم بين مخى الرجل والمرأة مادة وشكلاً . أثبت العلم ان مخ الرجل يزيد عن مخ المرأة بمقدار مائة جرام فى المتوسط . ولا يعترض علينا بأن هذا الفرق منشأه الاختلاف بين حجمى الجسمين لانه شوهد ان نسبة مخ الرجل الى جسمه هى كنسبة ١/٤٠ اما نسبة مخ المرأة الى جسمها فكنسبة ١/٤٤ وفرق بين النسبتين . وغير هذا فان مخ المرأة اقل تلافيف وتلافيفه اقل نظاماً . وهذه المشاهدة يعدها العلماء من اكبر مميزات الجنسين وكذلك يوجد اختلاف بين المخين فى الجوهر السنجابى الذى هو النقطة المدركة

من المخ فهى عند النساء اقل منها عند الرجال بدرجة محسوسة جداً ولكن فى مقابلة ذلك نجد مراكز الاحساس والتهيج عند المرأة احسن تركيباً منها عند الرجل قال الاستاذ (دوفارينى) فى دائرة المعارف الكبرى :
« وهذا مطابق لمميزات الجنسين من الحيثية النفسية »
« فان الرجل اكثر ذكاء وادراكاً واما المرأه فاكثر »
« انفعالاً وتهيجاً »

لا شك ان كل هذه الاختلافات المخية تدلنا باوضح برهان على ان مركز الادراك فى الرجل ارقى منه فى المرأة فيكون هو افضل منها ادراكاً . ولا يمكن ان يعترض علينا بأن ذلك نتيجة حرمان المرأة من التهذيب طول تلك القرون الخالية وانه بمرور الزمن قد ينمو مخها حتى يساوى مخ الرجل لان تلك الفروق تشاهد بعينها فى الشعوب المريقة فى الوحشية التى لا حظ لكلا الجنسين فيها من التعلم فلو كان السبب الذى يرقى مخ الرجل عن مخ المرأة هو التعلم فلماذا تشاهد تلك الفروق بنفسها

عندهما وهما على حالة السذاجة الطبيعية الاولى التى لا يفضل احـدهما الآخر فى مزية عقلية ما : ولكن ليهدأ انصار المدنية المادية عندنا فقد اثبت القوم انهم كلما ازدادوا تمدناً ازداد الاختلاف بين الرجل والمرأة فقد جاء فى دائرة المعارف الكبيرة ما نصه : «الاختلاف الطبيعى» « يزداد وضوحاً بازدياد التمدن بحيث اصبح الفرق بين » « الابيض والبيضاء اكبر بكثير من الفرق بين الاسود » « والسوداء » ولا يستغربن القارىء من تزايد هذا الفارق بين الرجل والمرأة فى ذلك الشكل من المدنية فان لسان النواميس الطبيعية تصيح بالذكر والانثى فى تلك البلاد : أن احذرا التمرد على قوانين الحكمة الالهيـة وعصيان قواعدها الغير قابلة للتبدل مهما موهتما على انفسكما وعلى الناس فقـد عصاها قبلكما امم باسرها فذهبت فى تيار الفناء ولم تغن قوتها عنها فتيلاً . هذه النواميس الطبيعية لا تنذر بلسان وشفتين ولكن تنذر باحداثها واحوالها فان تزايد الفرق بين المرأة والرجل . علامة عملية على ان المرأة

ليست فى الدائرة التى رسمها الله تعالى لان تشغلها فلتنتبه المرأة من رقدتها ولينتبه محبو الرقي الانسانى فيدخلوا المرأة الى حدودها الطبيعية بالطرق الحكيمة . ولتحذر المرأة المسلمة من السقوط فى هذه الهاوية المريعة فان طلبها للاستقلال الموهوم سيجرها لاسمح الله الى زيادة الفرق بينها وبين الرجل فهو عنوان تسجيل الشقاء الابدى عليها بدل الحرية ولتعلم ان تزايد هذا الفارق فى اخواتها فى العالم المتمدن لم يجره اليهن الا تشبثهن بمباراة الرجل فى حياته الخارجية وهو مجال سبقها ولم يزل يسبقها الرجل فى كل شأن فيه مع ما كان عليه من الفارق الاصلي المعلوم فما بالك لو تزايد هذا الفارق الى أكثر من ذلك . وقد حسب الاقتصاديون ما ينبنى على الفارق الطبيعي الاصلي بين الرجل والمرأة من الامتيازات للاول دون الثانية بقواعد رياضية حيث اثبت الفيلسوف (برودون) فى كتابه (ابتكار النظام) ان نسبة مجموع قوى الرجل الى قوى المرأة تساوى ثلاثة الى اثنين ثم قال

بالحرف الواحد :

« وحيث ان كل جمعية مكونة من اتحاد هذه الثلاث عناصر وهي : العمل والعلم والعدالة فيكون القدر الحقيق للرجل والمرأة هو كنسبة ٣ × ٣ × ٣ الى ٢ × ٢ × ٢ اى كنسبة ٢٧ الى ٨ وبهذه الشروط لا يمكن ان توازن قوى المرأة قوى الرجل فخضوعها له امر لا مناص منه . فهى امام الطبيعة والعدالة لا توازي ثلثة فيكون التحرير الذى يطلبه بعضهم باسمهن هو تسجيل الشقاء عليهن تسجيلاً شرعياً ان لم اقل تسجيل العبودية » . هذا قول اقتصادى خبر الاحوال فى بلاده وعلم موضع القوة والضعف منها فلا يليق ان نضرب بقوله عرض الحائط ولكنه لم يبخس حق المرأة من جهة أخرى حيث قال : « ولما كانت موهبة المرأة معنوية محضة فقيمتها لا تقدر من هذه الحيثية وتسبق الرجل فيها لا محالة ولكن على شرط ان يكون هو سائقها . وهى لاجل ان تحفظ لنفسها

هذه الهبة التى لا تثمن والتى هى ليست خاصية ثابتة فيها بل هى صفة او شكل او حالة يلزمها ان ترضخ لقانون السيطرة الزوجية . فان المساواة بجعلها اياها مكروهة قبيحة تكون حالة لعقدة الزوجية ومميتة للحب ومهلكة للنوع البشرى »

نعم لم تخلق المرأة لتستعبد فيجب عليها ان تجاهد لنوال حريتها المعتدلة . ولكن بأى سلاح ؟ بسلاح وهبها الله لها وليس من جنس سلاحنا وليس فى مكنتنا ان نقابلها بمثله ولكنها بغاية الاسف غافلة عنه ولا تفكر فيه . وليس ذلك السلاح الا معرفتها خطارة وظيفتها وسمو مقام الهبة التى منحتها والعمل على حسن التصرف بها . هذا السلاح يجعلها موضوع التجلة والاحترام ومحل الاجلال والاعظام لانها تعتبر عندئذ مليكة لأزمة الاحساسات وسلطانة على منازع الطباع فهي ان شاءت جعلت الحكومة ملوكية وان شاءت قلبتها جمهورية وان شاءت عملتها اشتراكية وما ذلك الا بتربية الاطفال على

حسب اميالها وسوقها اياهم الى الغاية التى تتمناها فتهابها الحكومات وتخشى سطوتها الملوك فى عروشهم السامقات ويعدونها مزعزعة ان لم ترضَ عنهم الامهات وتستطيع وقتها ان تقتاد الرجل بزمام من حديد لينتقم منه على ما اجترحت يداه فى حقها حيث كان يتركها بعموهات افكاره فى الحرية تعمل بجسمها لتنال قوتها الضرورى هرباً من انياب الموت الا ان الخالق تقدست صفاته قد احتاط لهذا الامر فوهبها من رقة الاحساس والشفقة المتناهية والعواطف الرقيقة ما يؤهلها لمنزلتها هذه من السيطرة وقيادة الاميال العامة فهي لا تأمر الا بخير ولا تبعث الا لمرحمة

هذا هو سلاح المرأة الذى لو علمته لسمت اليه سعياً حثيثاً ولرمت بقول كل من يريد ان يلقمها عنه عرض الحائط ولاتهمته بأنه يحسد مستقبلها فيريد أن يوجهها الى ما يزيدها اسراً ويجعل عيشها مراً . هل ترضى المرأة عند ما تعرف كنه مستقبلها هذا ان ترفع

الحجاب؟ كلا لانها سترى بالتحليلات العمرانية ان ذلك يسوقها الى مايزيد استعبادها وهو امر يعطلها بل يصدها عن بلوغ شأوها المنتظر. ثم هل تميل لان تجارى الرجال فى الاشغال؟ كلا لان ذلك يسلخها كما ستراه مثبوتاً بالتجارب اليومية عن عرش ملكها (عائلتها) سلخاً فلا تتوصل الى مركزها المستقبل الذى فيه سعادتها وحريتها

اذن ماذا تعمل؟ تتعلم كيف تكون اماً وتدرس قوانين وظائفها وتدأب على مطالعة اسرار التربية وعجائبها التى بها يصير الجبان شجاعاً والبخيل كريماً والامبراطورى جمهورياً والاشتراكى ملوكياً الخ الخ وتترك التبرج والتباهى بتعلم اللغات الاجنبية ولا تسرف فى الزخارف فان الانهماك على كل ذلك يبعدها عن كمالها الذى فيه سر مجدها ويجرها تدريجاً الى ما فيه عبوديتها ورقها. ولا يغرها ما تراه من انطلاق النساء فى غير قومها بغير حجاب ولا تستنتج من تطوافهن مع ازواجهن فى الشوارع انهن اقرب منها الى ذلك المستقبل السامى. كلا فقد

جرهن ذلك الانطلاق الى طريق غير طريق سعادتهن وقداخذ قومهن فى التشكى من حالتهن كمانقلناعن اعاظمهم كل ذلك تفصيلا

تلك هى المرأة الكاملة وتلك هى حريتها الحقيقية وذلك هو سلاحها فى معترك هذه الحياة فليتخذ المسلمات هذا المثال نصب اعينهن وليعملن على التقرب منه شيئاً فشيئاً حتى ينلن سعادتهن وينلننا سعادتنا المرتبطة بهن والله يهدى من يشاء الى سواء السبيل

الفصل الرابع

هل تتأتى حرية المرأة على الصفة التى يريدونها لها

نحن بعد ان اثبتنا علمياً ان المرأة لا تستطيع ان تلحق شأو الرجل فى بسطتى الجسم والادراك ابداً مهما ناظرته فيهما لا لكون الخالق قضى عليها بالانحطاط ولكن لكون وظيفتها التى خلقت لتؤديها فى هذا العالم لا تقتضى اكثر

مما متعت به من القوى ولكونه تعالى لم يعلق سلاحها في هـذا المعترك على قوة عضلها بل على تلك الموهبة السامية التي تكلمنا عليها في فصلنا المتقدم . فهي مناط سعادتها وسلم مجدها . وقد برهنا في الفصل المتقدم ان نمو تلك الخصيصة المعنوية فيها يتعلق برضوخها للرجل . وبناء على هذا وجب عليها لمحض صالحها ان تكون تحت حمايتـه مباشرة وهي ان لم ترضخ له عن طيب خاطر فرضوخها له سيكون اضطرارياً لانها لا تستطيع مزاحمته في اى شأن من شؤون الحياة الخارجية لان الغلبة في ذلك المعـترك الهائل تقتضي قبل كل شيء قوة العضل وتحمل الجسم لمتاعب المحاولات واوصاب التأثيرات المختلفة واكبر دليل على ذلك تحملها لنير الرجل من اول نشأتها الى اليوم ومهما حاولت الفلسفة الخيالية بحسن اساليبها في كسر شوكة الناموس الطبيعي الذي مقتضاه ان القوى يغلب الضعيف ويأسره فلن يكون نصيبها الا مثل نصيبها في طلبها تحرير الامم الضعيفة من مخالب الامم

القوية او مطالبة الرجل القوى لينزل الى حضيض اخيه
الضعيف فى كل حيثية اذ ليست النواميس التى خلقتها
الحكمة الالهية لتسود على اعمال البشر قابلة لان تبطل
من عملها يوماً من الايام رضوخاً لخيالات بعض افراد
النوع الانسانى ممن يودون ان يكون شكل الوجود على
حسب ما يتخيلونه لا على حسب ما هو عليه وما يجب ان
يكون عليه دائماً

ان الخالق الحكيم الذى اعطى كل شىء خلقه ثم
هدى قد وضع الكون على اسلوب منتظم فلا يجوز لنا
التحكم على احكامه والسعي فى ابادتها بالشقاشق فان ذلك
المسعى فضلاً عن انه يذهب ادراج الرياح يمكن ان يعتبر
تمرداً على احكام الفطرة الالهية المقدسة وعصياناً لنواميسها .
ولو كنا ممن يغره الظاهر المبرقش وتستوقفه القشور
دون النفوذ الى حقيقة الواقع لقلنا ان المرأة فى المدنية
الغربية قد كادت تخرج من سيطرة الرجل مع ان الحال
على خلاف ما يتوهم الكثيرون . فان ناموس: القوى يغلب

الضعيف . ليس بأقل عملاً فى بلاد تلك المدنية منه فى
اى بلد اخرى ولكن مظاهره هى التى اخذت اشكالاً
اخرى فقط غير اشكالها الاصلية على انا نقول وسنقيم
الادلة المحسوسة ان فى كل جهة يميل الفكر الانسانى
الى ستر حقائق الواقع بستار من التمويه وحاجز من المواربة
تهم النواميس الالهية بتشديد الوطأة عليها والتساعد
بسواها من قوانين اخرى ارغاماً للمتظاهرين بالتغلب
عليها فتكون امثال تلك الامم فى مظاهرها غير ما هى
عليه فى حقائقها . وانك لترى هذه الحوادث فى كل بلد
سادت عليها تلك التمويهات الواهية . انظر الى تلك الامم
التى تحارب الامراض بوسائل تحار فى وصفها العقول
وبعقاقير تكاد على زعمهم تطيل الحياة وتحفظ قوة الشبيبة
تراها اشد خضوعاً للامراض والمصائب الجثمانية من
اى امة متوحشة ليس لديها من وسائل الدفاع شىء يقر
عليه عقل العاقل . لم ذلك ؟ ذلك لان الامم المتوحشة
اقرب لحالة البساطة الاولى وسذاجة الفطرة الاصلية من

هذه الامم المدعية فهي خاضعة مباشرة لقوانين الفطرة واما تلك فقد خرجت عنها بما اوتيته من العلم فجرت فى ميادين الحياة منقادة لاهوائها واحاطت نفسها من الوسائل ما رجت معه ان تكون بمعزل عن احكام الخليقة فما عملت في الحقيقة الا ان دفعت نفسها الى اسر تلك الاحكام باشد مما كانت فيه واستجلبت على نفسها سلطة عوامل طبيعية اخرى تقتضيها حالتها التمويهية . مثلهم فى هذه الحالة كمثلهم بالنسبة للنساء فان بعض خياليهم يزعم ان نساءهم قد نلن قسطاً عظيماً من الحرية وانهن صرن يتمتعن بمواهبهن اكثر من الشعوب الهمجية ويستدلون على اقوالهم هذه بتمويهات لفظية بينما الطبيعة فى الوقت نفسه تكذب اولئك المدعين طوراً بلسان رجالها من ذلك العالم الذى سترى اقوالهم ان شاء الله ومرة بافاعيلها المحسوسة فانا اثبتنا لك فى الفصل المتقدم ان الفرق بين الابيض والبيضاء صار اكبر بكثير من الفرق بين الاسود والسوداء وما ذلك الا علامة عملية تثبت ان ذلك الجنس

الرقيق هناك فى هبوط مستمر وهذا الهبوط المستمر صائح من الطبيعة ينطق بلسان فصيح ان الاسر هناك مهما رقت مظاهره اشد منه عند سواهم

نحن باقامتنا الادلة العيانية ولا سيما اذا استشهدنا باعظم عمرانيي العصر على أن المرأة فى البلاد المتمدنة اشد استكانة للأسر من المرأة الشرقية نرجو ان يكون ذلك اكبر زاجر واعظم رادع للمرأة المسلمة عن سماع لفظة حرية لئلا تقع فى ادنى مما هى فيه ولتضع نصب عينها فقط تهذيب نفسها وتنمية ملكاتها على حسب قانونها الطبيعى المرسوم لها من لدن العناية الالهية فانها تكون بهذه الواسطة مستحقة لما ورد فى حقها من الآيات الكريمة والاحاديث الشريفة وغير معرضة لاحكام العلم والعلماء فى العالم المتمدن الذين ضاقوا ذرعا من الخطر الذى وقعوا فيه كما سيمر تفصيلا

لو كان حصل تحرير حقيقى للنساء فى اي عالم من العالمين لعلم ذلك جهابذة العلماء قبل كتاب الاقاصيص

ولما سموا ذلك اللغط بالتحرير مستحيلات خيالية لو تحققت يوماً ما لأفسدت حال المرأة. قال استاذ الاساتذة الحسيين وواضع علم العمران العلامة (اجوست كونت) فى كتابه (النظام السياسى على حسب الفلسفة الحسية) ما يأتى :

نحن بدون ان نكلف انفسنا مناقشة تلك المستحيلات الخيالية (يعنى : تحرير المرأة) المؤخرة للرقي يلزمنا ان نحس — لنقدر قدر النظام الحقيقى — بأنه لو نال النساء يوما من الايام هذه المساواة المادية التى يتطلبها لهن الذين يزعمون الدفاع عنهن بغير رضائهن فان ضماناتهن الاجتماعية تفسد على قدر ماتفسد حالتهن الادبية لأنهن فى تلك الحالة سيكن خاضعات فى اغلب الصنائع لمزاحمة يومية قوية بحيث لا يمكنهن القيام بها كما انه فى الوقت نفسه تتكدر المنابع الاصلية للمحبة المتبادلة

على اى دعامة يستند هؤلاء الاساتذة فى تحقيق نظرياتهم هذه ؟ على العلم الصحيح والقوانين الحيوية

المعروفة لا على الأهواء وما تزينه النفوس من حب التغيير والتحوير فى مراتب الكائنات وقد مضت امم سنحدث لك منها ذكراً طافت بعقولها مثل هذه المشروعات فجرت على كيانها اتعس الحوادث الاجتماعية وذهبت فى خبر كان ، وقد عد هذا الحادث علماء الاجتماع البشرى تجربة لا يفترون بعدها بزخارف الفلسفة الخيالية . جاء فى دائرة معارف القرن التاسع عشر ما تعريبه : « ان الحركة التى تألفت فى ايامنا هذه فى صالح النساء لن يكون نتيجتها حتما الا تحقيق صدق هذه التجربة العمومية تحقيقاً نهائياً . ان نوعنا الانسانى بجملته عاش زماناً مديداً فى كل جهة فى حالة اجتماعية ادنى بكثير من الحالة التى يرثون النساء من اجلها اليوم فامكن الجمعية البشرية ان تتخلص من وطأتها شيئاً فشيئاً من منذ القرون الوسطى لدى الشعوب المرتقية لأن ذلك الفساد الاجتماعى الذى هو حالة عرضية اقتضاها الزمن السالف لم تكن متعلقة بامتياز الحاكمين عن

المحكومين فى شيء عضوى (يعنى كما هى الحالة بين النساء والرجال فان الخلاف بينهم عضوى) اما خضوع النساء فبالعكس لن يكون بالضرورة له نهاية ينتهى اليها بل سيتوافق شيئاً نشيئاً مع الكمال الادبى العام لأنه يستند مباشرة على الهبوط الطبيعى للمرأة الذى لا يمكن ملافاته وهذا الهبوط الطبيعي مؤسس ومحقق بواسطة المقارنات البيولوجيه (الحيويه) وبالمشاهدات الاجتماعية اليومية. فان البيولوجيا تبرهن لنا تشريحياً وفسيولوجياً بان فى السلسلة الحيوانية وبالاخص فى الانسان نجد الانثى مركبة فى حالة طفلية اصلية تجعلها احط فطريا من «التركيب العضوى المقابل له»

ولما كتبت مدام (هيركور) الشهيرة بالمدافعة عن حقوق النساء الى الفيلسوف الاشتراكي المشهور (برودون) تسأله رأيه فى مسألة النساء اجابها بأنه لا يعتبر المساعى المبذولة من النساء فى تحرير المرأة كما يقول بالحرف الواحد فى كتابه (ابتكار النظام): «الا شغفاً يدل على عته

اصابت جنسهن وهي علة تبرهن على عدم استعدادهن لتقدير قدر انفسهن وسياسة امورهن بذاتهن » ثم اخذ يبرهن لها على مستنداته العلمية فقال بالحرف الواحد :

ان الفرق الجنسي بين الرجل والمرأة يفصلهما فصلا شبيهاً (ولا اقول مساوياً) بالفرق بين الانواع والاجناس من الحيوانات وبهذا الفرق فلا يمكن للمرأة والرجل ان يكونا شريكين ولكن لا اقول انهما لايستطيعان ان يكونا غير ذلك . وبناء عليه فالمرأة لاتستطيع ان تكون وطنية الابالنسبة لكون زوجها وطنياً كما يقال السيدة الرئيسة لزوجة رئيس الجمهورية . ولكن كل هذا الكلام لايشير الى انه ليس للمرأة دور تلعبه في الوجود وبالاختصار انى مستعد لان اثبت بالمشاهدات والبراهين ان المرأة التى هي اقل من الرجل قوة احط منه فى العوالم الصناعية والفلسفية والاخلاقية وان حالة المرأة فى الهيئة الاجتماعية اذا جرت على النسق الذى تريدينه كما هو حالة الرجل

فيكون امرها قد انتهى فانها تصير مستعبدة مملوكة

نقول بالأسف! ألمثل هذه الاحكام العلمية الصارمة تنتهى مرحمة الساعين فى تحرير النساء! فان كل مساعيهم وحججهم الوهمية تذهب امام الطبيعة والعلم هباءً منثورا ولا تكون نتيجتها الا تحرش علماء الكون ضد اولئك الناس وجعل المرأة ألعوبة في الافواه . هذا يقول انها فى حالة طفلية وذلك يقول انها غير مؤدبة وآخر يقول غير ذلك مما نتألم له معشر المسلمين — الذين يأمرنا ديننا بحسن معاملتهن — كل التألم فما اضر تلك المدافعات الواهية على هذا الجنس الرقيق! وما كان اغناهن عنها!

يذهب حضرة مؤلف (المرأة الجديدة) الى ان فى اوروبا وامريكا حركة تسعى لزيادة حرية النساء فقال:

لهذا يشتغل محبو الترقى فى أوروبا وامريكا لتحسين حال المرأة وايصالها من الكمال فوق ما وصلت اليه الآن وآلوا على انفسهم ان يجاهدوا فى هذا السبيل حتى يبلغ النساء مرتبة الرجال فيساوينهم فى جميع

الحقوق الانسانية ولا انكر ان عدداً غير قليل من الغربيين لم يزل يجادل فى صحة أصل المساواة التامة بين الصنفين . فهناك مذهبان يتزاحمان احدهما يكتفى بما وصلت اليه المرأة الغربية من الحرية والحقوق والثانى يطلب الازدياد فيهما حتى لا يبقى فرق بين الصنفين

اما نحن فنقول لا يسوغ لنا تصديق هذه النظرية الا اذا كاف حضرة الباحث نفسه فاتى لنا بمقولات كل من الحزبين اللذين ذكرهما لنعرف الاهمية الحقيقية لكل منهما ولنتحقق اى الحزبين اكثر ناصراً وأشد عضداً . أما نحن فلم نر من بين العلماء الموثوق برأيهم ممن نقلنا وسننقل اقوالهم واحداً يستحسن ذلك القسط من الحرية المموهة . وعلى ما نعلم ويعلم كل انسان انه ليس لدينا الا طريق واحد لمعرفة حقيقة الاجانب عنا وهى الاسترشاد باقوال كبار علمائهم وقد قمنا نحن بهذا الواجب فأتينا بما هو مكتوب بدوائر معارفهم وبتآليف

رؤساء فلاسفتهم مثل (اوجست كنت) و (برودون) و (جول سيمون) وغيرهم. وأما لو استعبدنا افكارنا لكل قائل وكاتب من ذلك العالم فلنستعد اذن لقبول كل سفسطة فان الحرية القلمية التى يتمتعون بها تبيح لهم ان يقولوا كل شىء حتى ان فيهم رجالاً ينصحون بقتل كل ذى عاهة لكى لا يكون فى العالم الا الاصحاء فقط بقصد تطهير النوع الانسانى من الامراض الخبيثة

فهل يليق بنا ونحن فى هذا الدور الحرج ان ننبذ مقررات العلوم الصحيحة ونطرح ما يقوله اعقل عقلاء القوم فى العصر الحاضر ونلقي بايدينا بين كتَّاب حكم عليهم عقلاء بلادهم بانهم انما يشتغلون للافساد واحداث الارتباك بين الجنسين الرجل والمرأة ؟

يقول حضرة المؤلف ان هناك مذهبين يتزاحمان. نقول نعم احدهما قسم العلماء العقلاء اصحاب البصر فى اسرار الطبيعة والخليقة وقسم الخياليين اصحاب الاهواء وان ظهر هؤلاء الاخيرون يوماً من الايام فى شأن من

الشؤون فليس ذلك بعجيب فى ذلك الشكل المعتل من المدنية (عفواً فانى أقلد العمرانى جيوم فريرو فى هـذا التعبير كما سترى) فان منهم من يشير بلاشاة الحكومات والديانات ومنهم من يشير باباحة جميع الشهوات ومنهم من يشير بهـدم سائر معالم المدنيات الى غـير ذلك من اشكال الخيالات. فهل كتب علينا معشر الشرقيين ان نعتمد على المتطرفين فى كل تصرفاتنا الاجتماعيـة؟ أما يكفينا ان نرى العـلم والحس والعقل وجميع علماء البشر واكبر عقلائهـم قاموا يقررون اليوم ما نصته الشريعة الاسلاميـة بالحرف الواحد فنقتدي بما قررته تعاليمها المقدسة لننجو من اللائمة عند الله والناس؟

يقول حضرة المؤلف : « انـ المرأة فى نظر »
« المسلمين على الجملة ليست انساناً تاماً وان الرجل منهم »
« يعتبر ان له حق السيادة عليها ويجرى فى معاملته لها »
« على هذا الاعتقاد » نقول لا يوجد مسلم يعتـدُّ به يعتقد هذا الاعتقاد بل لا يوجد مسلم يقول بأن المرأة

طفلة بالنسبة للرجل وبينها وبينه من التفاوت مثل ما بين اجناس الحيوانات كما يقول علماء الفسيولوجيا (انظر دائرة معارف القرن التاسع عشر) ولا يوجد مسلم يقول ان هذه المرأة ليست انثى الانسان الحالى بل انثى كائن ضعيف مثلها ثم تغلب عليها الرجل وافنى قرينها الاول كما يقول بعض علماء الانسان (انظر دائرة المعارف الكبرى) ولا يوجد مسلم يقول كما يقول الفيلسوف الشهير (برودون) ان المرأة مثلها فى المعامل كمثل المشبك والبكرة الخ الخ . أليس كل هذا يدل على ان المرأة فى نظر اجهل المسلمين ارقى مما هى فى نظر العلم الاوروباوى ؟

بقى علينا ان نلتفت لفتة واحدة الى جمهورية (يومنج) التى ادخلت الى نظاماتها منح النساء الحقوق السياسية . نقول ان هذه الجمهورية (يومنج) يسكنها — كما جاء فى الاحصائية الاخيرة — نحو من ٦٠ الف نسمة اي انها لا تزيد فى عدد السكان عن بندر من بنادر الارياف . ارضها جبلية وليست من المدنية بدرجة (نيويورك)

او (فيلادلفى) او (شيكاغو) مثلا من عواصم امريكا الشمالية

بعد ان اورد المؤلف هذا الخبر استشهد على صوابه بقول احد القضاة الامريكيين حيث قال : « ولم يترتب على اشتغال النساء بالوظائف العمومية انهن اهملن ما يجب عليهن فى منازلهن ولم يصل الى علمى ان زوجاً اشتكى من زوجته بسبب اشتغالها عن مصالح منزلها بالمصالح العامة الخ »

أما نحن فنسأل الساعين فى تحرير النساء هل صحيح قول القاضى الامريكى من ان اشتغال المرأة بالمصالح لا يعطل وظيفتها الخاصة ؟ هل اذا جاءها المخاض وهى شاغلة لمركز سياسى يسوغ لها ان تترك المركز شهرين ثم تعود اليه ؟ وهل هي التى تتولى تغذية ولدها على ثديها كل ساعتين مرة ام تتركه للمراضع الجاهلات ؟ وهل يليق بها ان تهمل تربيته تلك التربيـة الطفلية التى خلقها الله لأ جلها والتى لا يمكن ان تقوم بها غيرها وتشتغل بما

يقوم به عشرات غيرها من الرجال ؛ لانظن ان المؤلف يرضى بمثل هذه الحالة ابداً لانه يقول : « يظن الجمهور الاعظم من الناس ان التربيـة من الهنات الهينات ولكن من يعرفها حق المعرفة يعـلم ان لاشيء من الشؤون الانسانية مهما عظم يحتاج الى عـلم اوسع ولا نظر ادق ولا عناء اشق مما تحتاج اليه التربية . اما من جهة العلم فلأنها تحتاج الى جميع العلوم التى توصل الى معرفة قوانين نموّ الانسان الجسمانى والروحانى واما من جهة المشقة والعناء فلأن تطبيق القوانين على مايلائم حال الطفل من يوم ولادته الى يوم بلوغه سن الرشد يحتاج الى صبر ومثابرة فى العمل ودقة فى الملاحظة والمراقبة قلما يحتاج اليها عمل آخر

نقول هذا قول صحيح لاينكره عاقل ولكن كيف يمكن التوفيق بينه وبين امتداح القاضى الامريكى لنظام (يومنج) فى منح النساء الحقوق السياسية وشغلها لمراكز الاحكام؟ هل من العدالة ان نكلف المرأة المسكينة

بتلك المهمة المنزلية مهمة التربية الطفلية الشاقة ثم نكلفها فوق ذلك بأن تشتغل طول يومها بتحقيق الجرائم وتطبيق بنود القوانين على مرتكبي المآثم ؟ اذا ساغ لنا ان نلقي على عاتق المرأة تبعة فساد التربية مع علمنا بانها تحتاج الى ملاحظة ومثابرة ودقة فكيف تبيح لنا العدالة ان نحملها فوق ذلك بحكومة البلاد وسياسة امور العباد ؟ اذا كانت المرأة تكلف بهذين العملين فماذا يعمل الرجل اذن ؟ واذا كان هذا هو كمال النساء او هو الطريق الذى تسير فيه المرأة الى كمالها فان فى البلاد المتوحشة مثالاً للكمال احسن من هذا بكثير فان الرجال هناك يجلسون مرتاحي البال خالي الذهن من كل شيء ويكلفون نساءهم بكل الاعمال حتى بالحرث والحصد والطحن وجلب المياه من الاماكن البعيدة وغير ذلك فيجب علينا اذن ان ندرس تلك الشعوب جيداً لنتعلم منهم كيف يجب ان يرتاح الرجال على مصاريف المرأة . أليس هذا هو الاسر بعينه ولكن تحت ستار حرية مموهة ؟

ان الحقيقة التى لامراء فيها ويشهد بها الحس والعقل والوجدان هى ماقاله العلامة الفيلسوف (جول سيمون) الاقتصادى الشهير فى مجلة المجلات الفرنساوية (مجلد ١٨) : المرأة التى تشتغل خارج بيتها تؤدى عمل عامل بسيط ولكنها لاتؤدى عمل امرأة »

يقول حضرة المؤلف : « اماعدد النساء المشتغلات بتحرير العقود الرسمية والنساء القسيسات والمهندسات ومديرات الجرائد والمستخدمات فى الرصدخانات والبوسطة والتلغراف فلا يكاد يحصى وتشغل النساء اغلب الوظائف فى ادارة المعارف فقد بلغ عددهن خمسة وتسعين فى المائة فى المدارس الابتدائية » ولم يردف حضرته هذه الجملة ولا امثالها الا بما يشعر بالاستحسان ولكن الفيلسوف الاقتصادى جول سيمون يقول فى مجلة المجلات (مجلد ١٨) : « النساء قد صرن الآن نساجات وطباعات الخ الخ وقد استخدمتهن الحكومة فى معاملها وبهذا فقد اكتسبن بعض

« دريهمات ولكنهن فى مقابل ذلك قد قوضن دعائم عائلاتهن تقويضاً » نعم ان الرجل صار يستفيد من كسب امرأته ولكن بازاء ذلك قد قلّ مكسبه لمزاحمتها له فى عمله ثم قال وهناك نساء ارقى من هؤلاء يشتغلن بمسك الدفاتر وفى محلات التجارات ويستخدمن فى الحكومة بصفة معلمات وبينهن عدد عديد فى التلغرافات والبوسطة والسكك الحديدية وبنك فرنسا والكريدى ليونيه ولكن هذه الوظائف قد « سلختهن من عائلاتهن سلخاً » هذا قول صاحب الدار وصاحب الدار لاشك أدرى بما فيها فلا يليق بنا ان نلقى بكلامه عرض الحائط ونتمسك بخلافه

يقول حضرة المؤلف : « يكفي لبيان ارتقاء شأن المرأة الامريكية ان نقول انه تبين من الاحصائية التي عملت فى سنة ١٨٨٠ ان النساء المحترفات بالعلوم والادبيات فقط بلغ عددهن خمسة وسبعين فى المائة و ٦٣ فى المائة فى التجارة و ٦٢ فى المائة فى الصناعة

ولكن حضرته لم يشر الى ما جره هذا الامر من المفاسد الاجتماعيـة القتالة ، تلك المفاسـد التى يعلمها كل واقف على كنه الحركة هناك من الاحصائيات الصحيحة ونورد هنا موقتاً ملاحظة (مدام دو افرينو) على تقدم اولئك النسوة فى الصنائع والآداب . قالت فى مجلتها (انيس الجليس) الصادرة فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٩٩ بعد ان اوردت احصائية فى تقدم نساء امريكا فى الآداب والصنائع : « ولكن يظهر انه كلما امعنت المرأة فى التوسع بالفنون والعلوم زاد الرجل فى طلاقها وكان اكثر ذلك فى الولايات المتحدة فان الطلاق يمتد فيها الى حـد غريب غير موجود فى هـذه البلاد الاسلامية وسواها » انتهى . هذا الخطر المتوقع من الطلاق سنذكره ان شاء الله فى محله بعد ان نورد احصائياته المخيفة . ونحن هنا نتحفظ فنقول اننا لا نظن ان توغل المرأة فى العلوم والآداب يجعلها مكروهة لدى الرجل ولكن الذى يجعلها قبيحة مزدراة هو مزاحمتها

له فى عمله الخارجى ليس الا

ينتج من كل هذا ان مقاطعة (يومنج) ليست المثال الذى يصح احتذاؤه ولو كان كذلك لبادرت اليه الحكومة الرئيسية للممالك المتحدة التى هى ادخل جميع ممالك الارض فى المدنية والثروة وربما يتعجب القارئ من هذا الامر ويقول كيف ان تلك الحكومة الآخذة بمذاهب الحرية تغفل عنه ويسبقها اليه غيرها ولكنه لو علم السبب ابطل العجب فان حكومة امريكا جربته فعلا ثم ألغته بعد ما تبين لها من مضاره العظيمة . وذلك انه فى سنة ١٨٧٠ تألفت جمعية هائلة من النساء تحت رئاسة (مدام مرتين) وطالبت بحقوقها السياسية واستظهرت بكثير من رجال السياسة الذين يرون رأيها قبل اختباره . فقام اعضاؤها يخطبن فى المنتديات ويكتبن فى الجرائد ويجادلن رؤساء الاحزاب ويقارعنهم بالحجج حتى اقر مجلس النواب على تخويلهن الحقوق السياسية وما جاءت سنة ١٨٧٢ حتى رشحت (مدام مرتين) نفسها لرئاسة

الجمهورية فاصابتها الانتخابات وتربعت فى دست الرئاسة فلم تستقر فيه حتى تركها صواحباتها ووقع الخلاف بينهن فاسرعت الحكومة الى نسخ ذلك القانون نسخاً نهائياً هذه الحادثة الشهيرة فى تاريخ الولايات المتحدة مذكورة تفصيلاً فى المجلد ١٨ من مجلة المجلات

على انى لا اظن ان احداً يخالفنى فى انه لو ارادت جمهورية (يومنج) ان تنسخ ذلك القانون لاستطاعت ذلك بغاية السهولة كما فعلت حكومتها الرئيسية ومثل هذه الصبغ لا يصح تسميتها فى علم التشريع حرية بل هى محض تنازل من الرجل عن بعض حقوقه بصفة يستطيع استردادها فى اى وقت شاء بدون ان ينتظر معارضة فعلية . ونحن لا نقول ذلك رجماً بالغيب بل قالها قبلنا الفيلسوف (برودون) فى كتابه (ابتكار النظام) لما ضاق ذرعاً باللغط بتحرير النساء تلك الحرية المفرطة فقدقال مانصه : « وايضاً فانى فضلاً عن كونى » « لا استحسن ما يسمونه اليوم بتحرير المرأة اميل من »

باب اولى اذا دعا الحال ان اشـير بحبسها» . والانسان لا يشير بالحبس الا اذا كان فى مكنته ذلك

يقول حضرة مؤلف (المرأة الجديدة) : « هذا هو مجمل تاريخ المرأة نلخصه فى كلمتين . عاشت المرأة حرة فى العصور الاولى حيث كانت الانسانية لم تزل فى مهدها ثم بعد تشكيل العائلة وقعت فى الاستعباد الحقيقى ثم لما قامت الانسانية على طريق المدنيـة تغيرت صورة هذا الرق واعترف للمرأة بشىء من الحق ولكن خضعت لاستبداد الرجل الذى قضى عليها بأن لا تتمتع بالحقوق التى اعترف لها بها ثم لما بلغت الانسانيـة مبلغها من المدنيـة نالت المرأة حريتها التامة وتساوى المرأة والرجل فى جميع الحقوق او على الاقل فى معظمها اربعة احوال يقابلها اربعة ادوار من تاريخ التمدن فى العالم

اتى المؤلف بهذه الجملة ولم يقل لنا كيف كانت حالتها فى ذلك الاستقلال : ولا كيف رضيت بالاستعباد

بعد تلك الحرية عند دخولها الى العائلة ! ولا كيف انقلبت تلك الحالة دفعة واحدة! والباحث اذا كلف نفسه الوقوف على تلك المقتضيات كلها لرأى ان لكل من تلك الادوار احوال تلازمها ولا تنفك عنها . بمعنى انه ان ارادت المرأة ان تعيد الرجوع الى اى دور من تلك الأدوار وجب ان ترضخ لاحكامها ولوازمها لا محالة وحيث ان حضرة المؤلف يرى ان المرأة المتمدنة آخذة في الرجوع الى ذلك الاستقلال الأوَّلى فمن الضرورى ان تتكبد ما كان يلازمه . فلننظر الآن ماذا كانت حالتها فيه . قالت دائرة معارف القرن التاسع عشر بعد ايرادها تلك الادوار الأربعة مانصه بالحرف الواحد : « من هنا يتضح انه

وجد عصر كانت فيه قوانين العائلة غير معروفة وفيه كانت المرأة حرة من كل قيد ومستقلة تمام الاستقلال (تأمل جيداً) ومع ذلك فانها كانت محتقرة مهانة للدرجة القصوى . فلما تكونت العائلة تغير حال المرأة كل التغير لانها بمجرد دخولها العائلة تنازلت عن استقلالها »

«ولكنها اكتسبت فى مقابل ذلك مركزاً معنوياً لم يكن لها من»
« قبل . »

من هذه المشاهده الاجتماعية نعلم ان المرأة فى دور الاستقلال كانت محتقرة مهانة للدرجة القصوى . وبناء عليه فان ارادت المرأة ان تكون كذلك بنوال استقلالها ثانياً فلتفعل

ربما يقول قائل : ان هذه الحركة العصرية الدافعة لهن الى الاستقلال ليست مصحوبة بهدم العائلة كما كان الحال سابقاً وبذلك فلن تكون مهانة . نقول صدق من يقول ان التاريخ يعيد نفسه فان ابطال الزواج قد تحدث به النساء فى كل بلد متمدن وألفن فيه الكتب الضخمة قالت مجلة المجلات (مجلد ١٨) ما يأتى : « ان الزواج »
« الذى كان آباؤنا يعتبرونه ضرورياً يظهر انه قد صدم »
« صدمة شديدة فى كل جهة فان الرقى العقلي الذى »
« نالته المرأة وامتداد حقوقها يوماً بعد يوم وغرامها »
«الشديد بمساواة الرجل فى حقوقه وافراطاته كل ذلك»

« يهدد مدركاتنا التى ورثناها على الزواج . ثم قالت :
«ان رفض الناس للزواج ومحبتهم للطلاق وهما الامران»
«اللذان ينتشران يوماً فيوماً فى امريكا وفى كل الممالك»
«الاوربية ثم كل هذه الاعتصابات النسائية تشعر بمرض»
« يجب أن يتنبه له المتشرعون . »

هذا هو القول الفصل الذى ينتج من التحليلات العمرانية ونحن لا نستبعد ان شقاً من نساء البشر يتوصلن الى نوال ذلك الاستقلال المطلق ولكنهن سيوقعن انفسهن فى اشد انواع الاسر واخس اشكال الاستكانة والذلة . اما نحن معشر المسلمين الذين لا ضالة لنا الا الحكمة نأخذها حيث وجدناها فلا يليق بنا ان نلقى بانفسنا الى شأن من الشؤون قبل تدقيق النظر فى مجموع الحركة الانسانية لتتجلى لنا وجوه المنافع باسمة زاهية ووجوه المضار عابسة باكية فنأخذ الاولى ونرد الثانية وقد حثنا ربنا على درس الامم التى سلفت والبحث عن مناشئ سقوطها لنتحاشاها ولا نقع مثلهم فيها وها نحن

قنا بشيء من ذلك ورأينا الاستقلال المطلق للنساء سبب شقائهن وشقاء الرجال معهن فيلزمنا ان نقلع عن الخوض فيه وان نبحث عن الخطة المثلى لتحسين حال النساء بحيث لانخرج عن حدود الحكمة الألهية ولا الفطرة الانسانية فى شيء

الفصل الخامس

هل للنساء ان يشاركن الرجال في الاعمال

ان من اقبح مظاهر اسر المرأة فى الافراد والامم ترك حبلها على غاربها وقذفها بذلك الجسم اللين والعواطف الرقيقة والفؤاد المملوء رحمة والمهجة المتشبعة بالشفقة ان تزاحم الرجال فى معترك الحياة كتفاً لكتف لسد رمقها وتقضى طول نهارها وجزءاً من ليلها بين لهيب المعامل ودخانها او على قارعة الطرق بين هيجاء تلك المدنية المفزعة ولو تسنى لك يوماً من الايام ان تزور اكبر معامل

اوروبا وامريكا مما جمع الى فخامة المبنى وضخامته سعة لا يكاد يحيط بها البصر رأيت في داخلها أمراً عجيباً . رأيت جماعات من ذلك الجنس الرقيق مكلفات باشق الاعمال واقسى المحاولات العضلية واقفات امام التنانير المسجورة يمانين اوصاب الحياة ومرارة العيش تقرأ على وجوههن التى لفحتها تلك النيران المستعرة هذه الجملة التى لا تذهب من مخيلتك ابداً : « هـذا منتهى اسر الرجل للمرأة » ولو كلفت نفسك فسألتهن عن مقدار ما تأخذه الواحدة يومياً فى ذلك الجحيم المتأجج لاجابك مئات منهن بل الوف ان اجر الواحدة على هـذا الهم الناصب والكد الواصب لا يتجاوز العشرين سنتيما فى اليوم أى اقل من قرش مصرى وهو مبلغ لا يكدن ينلن العيش به الا تبلغاً ولو القيت بعد ذلك نظرة على اولئك الدكتورات والمهندسات لما وجدت النسبة الا كالمائة بالنسبة للخمسة فى اهم البلاد مدنية وعلما . ومحررو المرأة عندنا بدل ان يعدوا هذا مرضاً اجتماعياً كما يعده علماء

العصر الحاضر ويضعوا كل همتهم فى حياطة بلادنا منه مثل مايفعل حكماء اوروبا وامريكا كما سنريك اقوالهم نراهم يودون ان يفتحوا علينا ذلك الباب الهائل لظنهم اننا سائرون خلف اوروبا قدماً بقدم . ولكنهم لو كانوا دققوا قليلا فى حوافظ حياتنا الاجتماعية الاسلامية لكانوا اعلموا باننا بما اكسبتنا الروح الاسلامية نكاد نكون بمعزل عن كل تلك الامراض العمرانية المخيفة . يقول حضرة مؤلف (المرأة الجديدة) : « لهذا يمكننا ان نؤكد ان عدد النساء المحترفات لابد ان يزداد فى كل سنة عن الاخرى لاننا سائرون فى الطريق الذى سارت فيه اوروبا قبلنا » نقول اننا نخالف حضرته فى هذه النقطة كل المخالفة فاننا لسنا فى طريق اوروبا ولم يظهر منا مايشير الى ذلك مطلقاً وان اقل نظرة على هيئتنا وهيئتهم الاجتماعيتين ترينا لأول وهلة ان الفرق بعيد بين اصولنا الحيوية واصولهم وعواملنا العمرانية وعواملهم . نحن امة أحكمت روابطنا اصول دينية ورسخ فى اذهاننا اننا لم

نهبط عن عرش عزنا الا لترك تلك الاصول الموصلة لسعادة الحياتين وتلك امم ربطت آحادها روابط الجنسية او الوطنية ورسخ فى اذهانها انها لم ترتق الا بترك التعاليم الدينية . هذه النظرة البسيطة على اصولنا الاجتماعية العمومية تكفى لأن تقنعنا باننا لن نستطيع ان نحذو حذو اوروبا فى شؤونها الا اذا حلت عندنا محل الرابطة الدينية رابطة وطنية او جنسية ومحى من اذهاننا ان رقينا لأوج السعادة لا يتأتى الا بترك الديانة الاسلامية . وهل يمكن حدوث هذا التحول الذريع مادام العلم التجريبى يرينا كل يوم ان ديننا هو اكسير شفائنا ومرهم سائر جراحنا وهو الامر الذى ادركه مثلنا كثير من مشاهير علماء الغرب

والخلاصة مادامت رابطتنا الرئيسية هى من غير جنس روابط سائر شعوب العالم فلا يتأتى لنا مطلقاً ان نحذو حذو اى شعب من الشعوب فيما يصادم طبيعة تركيبنا ولا يوافق تعاليم مدنيتنا العزيزة فى نفوسنا . ومع كل

هذا فان الطريق الذى يسير فيه الغرب بالنسبة للنساء مملوء بالمخاطر مشوب بالعواثير المخيفة بشهادة أكبر عمرانيهم فانهم يعتبرون اشتغال النساء باشغال الرجال مرضاً اجتماعياً يجب ملافاته فكيف يسوغ لنا اليوم ان نمسح فى امراضهم لننتحلها لانفسنا ثم نكلف انفسنا تحمل اعراضها وآلامها . اذا كان لابد لنا من ان نحذو حذوهم فى شيء فلماذا لا نقلدهم فيما هم فيه صحيحون ؟ نحن لايسوغ لنا ان نأخذ شيئاً من اشياء تلك المدنية الا بعد تحليله تحليلاً دقيقاً جداً ويجب علينا حينما نقف امام مرائيها الفتانة ان نمسح اعيننا بمنديل الحكمة لنقدر على تمييز الحسن من القبيح فيها وان لم نجد من انفسنا الشجاعة على ذلك فيجب علينا بالاقل ان نسأل علماءهم عنها . ونحن جالسون هذه الساعة فى مكتبتنا وبين ايدينا اقاويل كثيرة لها علاقة بموضوعنا هذا فلننتخب منها ما له مناسبة بمسئلة النساء ليعلم المسلمون اننا ان لم نداو عللنا بايدينا فعبثاً نحاول ازالتها بايدى سوانا من الامم

كتب الاستاذ فى علم الانسان (جيوم فريرو)
فى المجلد الاول من مجلة المجلات لسنة ١٨٩٥ ما يأتى :
ان العلامات المنذرة بقرب حلول الازمة النهائية لهذا الشكل من المدنية الذى نعيش فيه كثيرة جداً (تأمل) بحيث لا يمر يوم حتى يقف الباحث على انذارات جديدة فيه . فلنمط نحن أيضاً انفسنا وظيفة الطبيب ولنجتهد فى مساعدة ما شخصه الاطباء من هذا المرض الاجتماعى فى زماننا هذا بدرس هذا الشكل الجديد من الرهبنة التي مع عدم استنادها على دين تهددنا بانها ستصل الى الحد الذى وصلت اليه الرهبنة الدينية فى زمن من ازمنة القرون الوسطى . يعلم الرجال والنساء بالتجربة وفى كل بلد بأن العقبات التي تحول دون الزواج تزداد يوماً بعد يوم وان هناك اسباباً لا عداد لها اقتصادية على الخصوص تقف فى طريقه حتى ان كثيراً من الناس لما يئسوا من امكان تذليلها صبروا على العزوبة بكل

وسعهم . ومن السهل علينا ان نقول اذن ان عدداً عديداً من اشخاص من كلا الجنسين يجب ان يحدثوا آثاراً هائلة على كيان الهيئة الاجتماعية كلها وذلك بمعيشتهم بلا زواج أعني في شروط حيوية صناعية . ويلزم ان الآثار التي تنتج من النساء العازبات تكون اكبر من آثار الرجال العازبين . فان عزوبة الرجل تكسبه في الواقع ونفس الامر صفات نفسية خاصة به ولكنها لا تقلب كيان شخصيته تماماً لانها لا تستلزم عنده العفة مطلقاً ويمكنها ان تجبره على المعيشة بين بنات الهوى او ترغمه على الفساد . وعلى هذا فالعزوبة لا تقتل فيه تلك الوظيفة الفسيولوجية دفعة واحدة . واما المرأة فبخلاف ذلك فان الشروط الاجتماعية الحالية تستدعي عفتها في عزوبتها والعفاف يقتضي حذف وظيفة الامومة وهي الوظيفة التي خلقت المرأة لاجلها جسماً وروحاً . لاشك اذن ان هذه الحالة يجب ان

تفسد شخصيتها فساداً ذريعاً ولا شك أيضاً ان عدداً كبيراً من هذه النسوة يحدثن آثاراً هائلة على الهيئة الاجتماعية

هذا القول من ذلك العمراني الطائر الصيت — وبين ايدينا عشرات من امثاله — يرينا جليا ان في شكل المدنية الغربية علامات منذرة بقرب حدوث ازمة نهائية على تركيبها وخصوصاً من جهة النساء . فاذا كان لا بد لنا من تقليدها في شأن من الشؤون فلا أقل من ان نجتهد في نقده بعقل وحكمة قبل ان تزل بنا القدم ولا ينفع الندم وان كان لا قدرة لنا على نقد المسائل العمرانية الكبرى التي لها ارتباط بمستقبل الامم فمن السهل ان نسترشد بعلماء تلك المدنية ونستفيد من تجاربهم اليومية وان تاق القارىء الى معرفة شيء من أقاويلهم في هذا الخصوص فاليه قول استاذ الفلسفة العملية وواضع علم العمران الفيلسوف (اجوست كونت) نترجمه من كتابه (النظام السياسي على حسب أصول

الفلسفة الحسية) . قال بعد ما ذكر مسألة اشتغال النساء باشغال الرجال وما ينجم عن ذلك من الخلل الاجتماعى :

ولكن بدل هذه الاحلام الهادمة المفسدة يمكن ان قاعدة طبيعية تضمن حياة المرأة تماماً . وذلك يكون بتعيين وتحديد الواجبات المادية على الجنس العامل (الرجال) نحو الجنس المحب (النساء) والفلسفة الحسية يمكنها وحدها بالنسبة لامتيازها بروح الحقيقة ان تسن هذه القاعدة الطبيعية بطريقة تجعلها سائدة محترمة . وليست الفلسفة الجديدة (الحسية) هى التى ابتكرت هذا الميل العام بل انها فقط قدرته حق قدره بعد تدقيق التأمل فى مجموع الحركة الانسانية

« يجب ان الرجل يغذى المرأة . هذا هو القانون الطبيعي لنوعنا الانسانى وهو قانون يلائم الحياة الاصلية المنزلية للجنس المحب (النساء) وهذه القاعدة التى تريك اخشن اشكال الاجتماع تحسن وتكمل على قدر رقى النوع الانسانى فان كل

الترقيات المادية التي تتطلبها الحالة الحالية للنساء تستحيل الى لزوم تطبيق هذا الناموس الاساسي بالدقة ويجب ان نتائجه تحدث رد فعل على كل الملاقات الاجتماعية وبالأخص بالنسبة لأجر العملة . هذا القانون الذى يلائم الميل الفطرى يرتبط بوظيفة النساء الشريفة بصفتهن عاملاً حياً للآلة المولدة للحركة . وهذا الاجبار (اجبار الرجل على تغذية المرأة) يشبه ذلك الاجبار الذى يقضى على الطبقة العاملة من الناس بأن تغذى الطبقة المفكرة منهم لتستطيع هذه ان تتفرغ باستعداد تام لاداء وظيفتها الاصلية . غير ان واجبات الجنس العامل من الجهة المادية نحو الجنس المحب هى اقدس من تلك تبعاً لكون الوظيفة النسائية تقتضى الحياة المنزلية . ولكن بالنسبة للمفكرين فان هذا الاجبار يكون تضامنيا فقط بخلافه بالنسبة للنساء فانه ذاتى » . هذا مايقوله استاذ اساتذة العمران ومؤسس الفلسفة الحسية التي هي آخر ماوصل اليه النوع

الانسانى من وسائل الحكم على حقيقة الاشياء من طريق الحس فانظر كيف تراه يحكم باسم الفطرة والطبيعة والاقتصاد بأنه لا يباح للنساء مشاركة الرجال فى الاعمال فهل بعد هذا يليق بنا معشر اصحاب الدين الفطرى ان نعصى احكام الفطرة حتى ولو أتت الينا من الغرب نفسه ؟

يقول معترض : وماذا نعمل اذا كان حال الوجود يقضى بأن يوجد عدد من النساء لا عائل لهن . انتركهن يمتن جوعاً ولا يزاحمن الرجال فى الاعمال ؟ نقول اذا علمت ان اشتغالهن خارج بيوتهن خلل اجتماعى خطير فالذمة وحب الجامعة تقضى علينا ان لا نسعى فى زيادة انتشاره بتسهيل سبيله بل توجب علينا الانسانية ان نعمد الى مداواته بكل وسعنا وبجهد استطاعتنا ونقلد الرجال الغيورين على مستقبل النوع الانسانى فى أوروبا وامريكا بالاشارة على الحكومات بسن القوانين الكافلة لراحة هذا الجنس الرقيق . فلننظر الآن الى مدنية الديانة الاسلامية لنرى هل فيها ما يضمن حياة هذا الجنس

من مخالب الجوع والفاقة ؛ نعم انها ضمنت ذلك بقولها انه لو مات زوج المرأة ولم يكن لها عائل من أقاربها عموماً وجب على بيت المال ان يقوم بنفقاتها فى كل ما تحتاج اليه . هذا ما تقوله المدنية الاسلامية وهذا ما آب اليه أصحاب الفلسفة العملية الحسية بعد الاعتبار بجموع الحركة الانسانية العامة وبعد ان دخل قومهم فى ألف دور ودور من ادوار الارتباكات الزمنية . فقد قال شيخها ومؤسسها الفيلسوف (اجوست كونت) فى كتابه (النظام السياسى) : « وفى حالة عدم وجود زوج ولا أقارب يجب على الهيئة الاجتماعية ان تضمن حياة كل امرأة أما فى مقابلة عدم استقلالها الذى لا يمكنها ان تتجنبه وأما على الخصوص بالنسبة الى وظيفتها الادبية الضرورية . واليك فى هذا الموضوع المعنى الحقيقى للرقي الانسانى : يجب ان تكون الحياة الانسانية منزلية على قدر الامكان ويجب تخليصها من كل عمل خارجى ليمكنها على ما يرام ان تحقق

« وظيفتها الحيه . » انتهى

هذا ما آب اليه اصحاب فلسفة القرن العشرين وقد رأيت انه مطابق لاصول المدنية الاسلامية فبأى حجة بعد هذا ننصح بتقليد أصحاب المدنية المادية فى أمراضهم وكيف يكون حالنا اذا قلدناهم فيها فنشبت فينا ونحن فى هذه الحالة من الضعف المساعد لقوة المرض ثم وجدناهم بعد ذلك سنوا قانونا جديداً يريح المرأة من تلك المحن العملية ومن أسرها للعمل الخارجى ؟ انرجع وقتها ننصح الناس بابطال ما كنا اشرنا به ؟ ولماذا كل هذا التكلف العجيب بعد ما رأينا باعيننا ان مدنيتنا الاسلامية هى الغاية التي يتقرب منها البشر يوماً بعد يوم ؟

ما الذي حدا بعلماء اوروبا الى الرجوع الى كراهة عمل النساء الخارجي رغماً عما يعتقده بعض الشرقيين من ان مزاحمة المرأة للرجال فى الاشغال شكل جميل من اشكال المدنية وخطوة كبرى من خطوات التقدم

البشرى ؟ الذى ارجعهم رغم انفهم الى ذلك ما رأوه باعينهم من سوء النتيجة عليها . راؤها اسيرة مسكينة تزاحم الرجل كتفاً لكتف ولا تنال بجانبه الا الفضلات التي يعرض عنها وهى فى كل مجال من مجالات العمل عرضة للتغلب عليها وعلى ما بيدها . قال الفيلسوف (فوريه) وهو اشد انصار حرية المرأة ما يأتى : « ماهى حالة المرأة اليوم ؟ انها لا تعيش الا فى الحرمان حتى فى عالم الصناعة الذى ألم الرجل بجميع انحائه لغاية الاشتغالات الدقيقة بالخياطة وشغل الريش . اما المرأة فيراها الناس منكبة على اشق الاعمال فى الخلاء . فما هى اذن مصادر الحياة بالنسبة للنساء المحرومات من المال ؛ المغزل ام جمالهن اذا كان لهن جمال ؟ نعم ان حيلتهن الوحيدة هى السفاد العلنى او السرى ليس الا وهى الحيلة التى تنازعهن الفلسفة فيها للآن . هذا هو الحظ التعيس الذى الجأتهن اليه هذه المدنية وهذا الاستعباد الزوجي الذى لم يفكرن للآن فى مهاجمته . هل يمكن

ان نرى ظلاً من العدالة فى حظ النساء هذا ؟ .

انتهى

فاين تذهب المرأة المسكينة بين هـذه المزاحمات القاسية ؛ اذا كانوا يقولون ان الانسان يرتقى كل عصر فى العواطف النفسية والمرحمة القلبية كما يرتقى فى السعادة المادية فلماذا لا تتفتت القلوب حسرة وتذوب الاضلاع كمداً ورأفة على ما وصل اليه حال هـذا الجنس الرقيق فى القرن العشرين ؟ اى انسان لديه مسكة من الرحمة يقبل ان تمتاخ المرأة من وظيفتها الطبيعية التى خلقت لها جسما وروحاً ويلقى بها بين سعير هذه الحرب المعاشية الدموية ؟ اين تذهب المرأة بين هـذه المزاحمات القاسية التى لم تقف عند حـد الماديات فقط بل تعـدتها الى المعنويات ايضاً . قال الفيلسوف الاقتصادى الشهير (برودون) فى كتابه (ابتكار النظام) ما يأتى : « النوع الانسانى » « ليس مديناً للمرأة بأى فكرة اخـلاقية ولاسياسية » « ولافلسفية . فانه مشى فى طريق العلم بدون مساعدتها »

واستخرج منه المدهشات والعجائب . النوع الانسانى ليس مديناً للنساء بأى اكتشاف صناعى ولا بأقل آلة فالرجل وحده هو الذى يخترع ويكمل ويعمل وينتج ويغذى المرأة . ثم قال : وان الدور الذى لعبته المرأة فى الآداب هو مثل الدور الذى لعبته فى (الفابريكا) فانها لم تنفع فى هذه الا حيث لا يلزم استعمال القريحة مثلها فى ذلك كمثل المشبك والبكرة انتهى انظر الى تلك المرأة المسكينة كيف يزاحمها الرجال ويمنعونها الحياة ويشبهونها بالمشبك والبكرة ! انى اعيذ المرأة المسلمة ان تكون كذلك . خلها عندنا سيدة فى بيتها مهتمة بتربيــة موهبتها الفطرية وهى تلك الموهبة التى تكلمنا عليها فى فصلنا المتقدم لتتمكن من نوال كمالها الذى لا يمكن ان يشاركها الرجل فيه ولا يستطيع ان ينازعها فى شىء منه وعلى زوجها رغم انفه ان يأتيها بلوازمها من اى الطرق شاء . ولتكن عندنا دائماً بمنزلة القلب من الجسم تخدمه سائر الاعضاء . لتهنأ بهذا المركز

السامى ولا تحسر على ما لديها من الجهل فانه عرض يزول بقليل من الجهد بخلاف ما لو تغير هـذا النظام وألقت بنفسها فى معترك الحياة الخارجية فانها لا تستطيع ان تسترد مركزها هذا مهما تاقت اليه وتمنته . ثم انى ارجو من يهمهم تحسين حال المرأة المسلمة ان ينصتوا الى حكمة بالغة فاه بها فيلسوف يعرف الناس جميعاً فضله من اعز ابناء هذه المدنية المادية واكبر استاذ من مؤسسيها وهو (جول سيمون) فقد كتب فى مجلة المجلات فصلاً عجيباً على كتاب الفه العلامة الفرنساوى (لوجوفيه) قال : « يجب ان المرأة تبقى مرأة . هذه كلمة المسيو لوجوفيه . نعم يجب ان المرأة تبقى مرأة فانها بهذه الصفة تستطيع ان تجد سعادتها وانتهبها لسواها . فلنصلح حال النساء ولكن لا نغيرها . ولنحذر من قلبهن رجالاً . لانهن بذلك يفقدن خيراً كثيراً ونفقد نحن كل شىء فان الطبيعة قد اتقنت كل ما صنعته فلندرسها ولنسع فى تحسينها ولنخش كل

ما يبعد عن قوانينها وامثلتها . وقال : يقول بعض الفلاسفة ان الحياة محفوفة بالمكاره ولكنهم ربما قالوا ذلك لانهم لم يذوقوا طعم الحب طول عمرهم . اما انا فاقول : ان الحياة طيبة هنيئة ولكن بشرط ان يعلم كل من الرجل والمرأة المحل الذى «خصصه الله تعالى لكل منهما» لماذا يقول هذا الاستاذ الاقتصادى الذى له اكبر الآثار فى المجتمع الانسانى امثال هذه النصائح ؟ لانه رأى بعينى رأسه ان خروج المرأة من خدرها واشتغالها بغير وظيفتها سلخها من عائلتها وقوّض دعائم بيتها كما نقل عنه ذلك بالحرف الواحد فى فصل متقدم وسترى من اقوال كثير من اخوانه العلماء انهم يرون رأيه ويتبرمون مثل تبرمه . وزيادة عما تحدثه مشاركة النساء للرجال فى العمل من التأثير الاقتصادى والعائلى السيئ فان له اثر آخر عليهن عجيب فى ذاته قال الاستاذ (جيوم فريرو) البحاث الشهير فى احوال الانسان وتطوراته (انظر مجلة المجلات

مجلد سنة ١٨٩٥) انه يوجد فى اوروبا كثير من النساء اللواتى يتعاطين اشغال الرجال ويلتجئن بذلك الى ترك الزواج بالمرة وأولاء يصح تسميتهن بالجنس الثالث اى انهن لسن برجال ولا نساء لمنافاتهن للاول طبيعة وتركيباً وللاخريات وظائف واعمالاً . وقد درس هذا الاستاذ احوالهن درساً مدققاً فوجد انهن بمعيشتهن فى تلك الحياة المصطنعة وانتزاعهن انفسهن من وظائفهن الطبيعية التى خلقن لها جسماً وروحاً قد تغيرت احساساتهن عن احساسات بنات جنسهن وصرن فى حالة تشبه الماليخوليا فكأن الفطرة البشرية تقيم عليهن الحجة بلسانها الفعلى على اغفالهن حقوقها . ثم قال بالحرف الواحد : « وقد
« ابتدأ علماء العمران يشعرون بوخامة عاقبة هذا الامر»
« المنافى للسنن الطبيعية فان هاته النسوة بمزاحمتهن »
« للرجال صار بعضهن عالة على الجمعية لا يجدن ما »
« يشتغلن به ولو تمادى الحال على هذا المنوال لنشأ منه
« خلل اجتماعى عظيم الشأن » هل بعد هذا كله نصر

للنساء ان يلقين بأنفسهن فى هيجاء الحياة الخارجية ؟ هل بعد ان ثبت لنا ان هذا الامر داء اجتماعى قاصم لظهر الامم يليق بنا ان نسعى فى مده وتوسيعه ؟ اذا كان الغربيون انفسهم مع ماعندهم من الالوف المؤلفة من المعامل ومجالات التكسب يسعون فى استئصاله فكيف نسعى نحن مع قلة وسائلنا العملية فى نشره ؟ ألا يجب علينا بعد هذه الاعتبارات ان نتكاتف على عدم تغيير نظام الشريعة الاسلامية التى هى (وسترى هذا حسياً عملياً فى كتاب المدنية ان شاء الله) ترجمة نظام الفطرة الانسانية ولسان القوانين الطبيعية ؟ أليس الاصلح لنا ان رأينا ان هناك علة ستبعدنا عن اوامرها او تقربنا من نواهيها ان نهتم فى درس مناشئها بالطرق الحكيمة لا ان نكون عوناً لها على انفسنا ؟

يقول حضرة مؤلف (المرأة الجديدة) : «وليس يفيدنا شىء ان يصبح رجال الاقلام عندنا ناقمين على ما وصلت اليه حالتنا اليوم وما ستصل اليه على ممر

«الايام وان يستشهدوا بما وقعت فيه اوروبا من نقصان عدد الزواج واحتراف النساء باشغال الرجال . ذلك لا يفيد لانه لا يمكن ان يترتب على هذه الشكوى اثر ما فى مجرى الحوادث فى العالم . ولو كانت الشكوى تكفى فى تغيير الحال لكان الامر سهلاً

نقول ان كان الامر كذلك وكانت الشكوى لن تفيد شيئاً فلماذا يشكو حضرته من سوء حال المرأة عندنا وينصح بتغييرها ؟ اذا كان يعتقد حضرته ان نقصان عدد الزواج واحتراف النساء خلل اجتماعى كما يعتقده عقلاء العالم فلماذا لا يشكو منه ويعمل على ملافاته بدل شكواه من قلته عندنا وعمله على زيادته ؟ اذا دخل طبيب الى بلدة ورأى ان جراثيم الطاعون تفتك فى اهلها فتكاً ذريعاً بسبب مالديهم من الاقذار فماذا يكون واجبه امام تلك الحالة ؟ أينصح الناس بالاستسلام للامراض والخضوع لافاعيل المكروبات ام ينصحهم بازالة الاوساخ لاستئصال شأفة الداء ؟ فاذا كانت النصيحة لن تفيد فى توجيه

الانسان نحو الصحة فبالاولى لن تفيده فى تجنيب الامراض اليه

يقول حضرته : « والحقيقة ان اهم عامل له اثر فى حال الامة هى حالها الاقتصادية . ومن الاسف ان هذه الحال الاقتصادية ليس فى امكان احد من الناس ان يحكم عليها ويديرها كيف شاء

نقول : اذا كانت حالة الامم الاقتصادية ليس من السهل ادارتها على حسب المرام فكم بالأولى حالتها الاجتماعية والاخلاقية ؛ على ان الحالة الاقتصادية اذا لم تكن قابلة للتغير لمؤثرات الارشاد فلماذا ينبغ فى العالم المتمدن ذلك الجم الغفير من علماء الاقتصاد ولماذا يهتم اقوامهم بتلقف ابحاثهم تلقف الظمآن للماء ؛ واذا كان لا بد ان نحتذى مثال اوروبا فلماذا لا نأخذ مأخذهم فى إلفات الناس الى احسن ضروب المعيشة بدل ان ننصحهم بالعمل بافظع انواع الفساد الاجتماعى ؛

الفصل السادس

هل فى طبيعة المرأة ما يدل على امكان تداخلها فى الاعمال الخارجية

خلق الله الخلق على اتم نظام وابدع احكام ووهب كل كائن فيه سائر مايحتاج اليه من اعضاء واجزاء ووضع فى كل عضو منه من القابلية والاستعداد مايبعثه من نفسه الى طلب ما خلق لأجله. تأمل فى اسنان الحيوانات مثلاً تر انه يوجد بينها اختلاف عظيم فى الشكل والترتيب. ترى لأكالة الحشائش اسناناً بسيطة معدة لهرس النبات فقط اما اكالة الحيوانات فقد متعها الخالق جلت قدرته بأنياب حادة وقواطع ماضية واضراس متينة تدل الرائى فى مجموعها دلالة صريحة بأنها مستعدة لتمزيق اللحم ومضغه. وهكذا ترى فى جميع اجزائها واجهزتها ترتيباً خاصاً واستعداداً مناسباً لشكل غذائها ومحاولاتها اليومية. هذه المشاهدة عند قراء التاريخ الطبيعي أحسن طريق للاستدلال على ان اشتغال النساء باشغال الرجال

يعد تعدياً منهن على حقوق طبيعتهن وخروجاً عن دائرتهن المرسومة لهن فيكون اجبارهن على هذا التعدى اكبر مظهر من مظاهر اسر هذا الرجل القاسى لقرينته الضعيفة الرقيقة ومزاحمته لها بدون مرحمة ولا شفقة فى ميادين هذه الحياة الخارجية الخطرة

ان كل مافى المرأة يدل على انها يجب ان تعيش فى عالم غير عالم الرجل والا فتكون كما يقول عنها الاستاذ (جيوم فريرو) المتقدم ذكره جنساً ثالثاً بين الرجال والنساء من مميزاته شحوب الوجه وعبوسه ودوام الكآبة والماليخوليا

انظر للمرأة فى احساساتها تجدها مثال الرحمة والشفقة ونموذج الرقة والدعة ثم انظر لها فى عواطفها تجدها ميالة لتضحية نفسها فى سبيل غيرها مستعدة بفطرتها لعمل الخير والبر وهذه كلها صفات تنافى اهوال العالم الخارجى تمام المنافاة لان الحياة الخارجية نضال وضراب وقتال وقراع للقوة فيها الشان الاول وعلى

القسوة فى كل مناحيها المعوّل. فأين تذهب المرآة المسكينة باحساساتها وعواطفها فى هذه الحرب الجهنمية المستعرة ؟ وماذا تعمل بذلك الفؤاد الرقيق فى هذا المعترك القاسى الذى يجب ان يؤلمها فى جميع مظاهره ومرائيه ويجافي رقتها فى سائر مشاهده ونواحيه ؟ لهذا السبب صارت المرأة فى البلاد التى اذنت للنساء بمشاركة الرجال فى العمل من اتعس خلق الله حالا واضيقهم عيشاً فلسن كما يقول الفيلسوف (فوريه) اكبر المنتصرين للنساء الا : «منكبات على العمل فى الخلاء عائشات فى الحرمان والفاقة » وكما يقول العلامة (برودون) « مثلهن فى الفابريكا كمثل المشبك والبكرة » وكما تقول مجلة المجلات فى مجموعة سنة ١٨٩٧ ان كثيراً منهن يشتغلن فى اقسى الاعمال ولا ينلن الا مايساوى عشرين سنتيما فى اليوم وليس شكل مأكلهن الا العيش المطبوخ مع ثفل اوراق الشاى . كل هذا لكونها لا تقوى على مزاحمة الرجل ابداً فتراها كلما همت بموضوع فيه بعض خير لها زاحمها الرجل

فيه واستعان على السبق فى تحسينه بقوة جلده وصبره حتى فى الخياطة وتزيين الرأس

يقولون : وماتلك الدكتورات والمهندسات اللاتى نسمع عنهن ؟ نقول اولئك اسعدهن الحظ بآبائهن الاغنياء فصرفوا عليهن مايوازن جسمهن ذهباً وقليل ما هن بالنسبة لغيرهن من الفقيرات اللاتى يكدن يمتن جوعاً ومع ذلك فهل هن طائعات لاحكام السنن الطبيعية ؟ اما كان يجدر بالدكتورة او المهندسة ان تكون والدة مهذبة تلد خمسة دكاترة وخمسة مهندسين ينفعون النوع الانسانى ويكثرون النسل ويعملون على فلاح الامة ؟ كل هذه الاشكال تعد تمرداً على سنن الطبيعة ولا يصح الاتيان بها دلالة على كمال النوع الانسانى وترقيه

يقول المؤلف : «ولكن ما الحيلة اذا كان نظام»
«الوجود يقضى بان كثيراً من النساء يعشن فى الوحدة»
« والانفراد ويسعين ويعملن لكسب قوتهن وقوت »
«اولادهن وبعض اقاربهن من القواعد والعاجزين»

نقول : الحيلة هي ان نتأثر من سوء حال أولئك النساء ونبرهن على انهن بفقرهن وتعاسة حظهن قد ارغمن هرباً من الموت على عصيان سنن الطبيعة ونعطي هذا الشكل المحزن من الحياة الانسانية حظه من التأثر والتحسر ثم نبحث على ما يخفف ذلك الويل الوبيل بالطرق الحكيمة لا ان نعمل على نشره بدعوى انه مظهر من مظاهر التمدن

انا اناشد كل ذي احساس شريف ان يفتكر معي قليلاً في حالة امرأة مسترجلة اجبرها الحال السيء والحظ المنكود الى المعيشة بلا زوج وان تعمل وتكد طول نهارها تحت حرارة الشمس وفوق رمضاء الهجير لتكسب قليلاً من العيش لدفع انياب الهلاك عن نفسها . قلت اناشده ان يفتكر معي قليلاً في هذه الحالة المحزنة ثم ليخبرني ما ذا يحس من رحمة في قلبه على ذلك الجنس الرفيق تدفعه الى ابتكار اي وسيلة — ووسائل الحياة الطبيعية غير محصورة —

تمنع سريان هـذا الامر الحادش لوجه مدنية القرن العشرين ؟ أى قلب لا يتفتت اذا سمع الفيلسوف «فوريه» وهو اعظم انصار حرية النساء ينادى فى وسط بلاد تلك المدنية المادية صائحاً فى وجه قومه :

ما هى حالة النساء اليوم ؟ انهن لا يعشن الا فى الحرمان حتى فى عالم الصناعة الذى ألمّ الرجل بجميع انحائه لغاية الاشتغالات الدقيقة بالخياطة وصنع الريش اما المرأة فيراها الناس منكبةً على اشق الاعمال فى الحلاً . ما هى اذن مصادر الحياة بالنسبة للنساء المحرومات من المال ؟ المغزل ام جمالهن ان كان لهن جمال ؟ نعم ان حيلتهن الوحيدة هى السفاد العلنى او السرّى ليس الا وهى الحيلة التى تنازعهن الفلسفة فيها للآن . هذا هو الحظ التعيس الذى الجأتهن اليه هذه المدنية وهذا الاستعباد الزوجي الذى لم يفكرن للآن فى مهاجمته

انى اعيذ المرأة المسلمة ان تدفع بها الاحداث يوماً

من الايام الى ورود هذا المورد الدامى وادعو الله بكل عواطفى ان يهب الرجال حكمة ليحموها شر هذا الخطر المزعج الذى يجره بذيله ذلك الشكل من التمدن المادى المتلاشي .

قلنا كل شيء فى المرأة يشعر بانها خلقت لغير الاشتغال باشغال الرجال انظرها وهى حامل تراها فى دور يجب عليها فيه ان تعتنى بنفسها غاية العناية . تجدها فى دور الوحام شديدة التأثر بالمناظر المختلفة ولا سيما المخيفة او المحزنة وقد افرد الاطباء المؤلفات الضخمة فى هذا الموضوع الهائل . ثم تنتقل من دور الى دور آخر حتى تلد فتقع فى مرض حقيقى وتكون معرضة مدة للحميات المختلفة الاشكال والآثار على حسب استعدادها ومزاجها ثم ترضع فتكون صاحبة السلطة المطلقة على حياة ابنها بواسطة لبنها فقل لى بابيك كيف يكون حال المرأة السياسية وهى فى دور الوحام اذا هب اعضاء البرلمان عقب المجادلة فى موضوع الى الملاكمة والصياح

كما يحصل كثيراً . او كيف يكون حالها من الانفعال والتحمس اذا قامت فى وسط الاحزاب تثير العواطف وتستنزل المراحم لنسخ قانون او تحوير مادة من لائحة وقام خطيب مصقع فسفه اقوالها وسفه حلمها وبرهن للمجلس بالف دليل على انها على شطط عظيم كما يحصل كثيراً بين السياسيين ؟ الى أي حالة يؤل امرها اذا كانت حاملا والى اى درجة يفسد لبنها اذا كانت مرضعا . ثم الى أي حضيض تسقط صحتها وصحة طفلها اذا قامت وهى حامل تعتصب مع الرجال لتقليل ساعات العمل بين دوى البنادق وصلصلة السيوف الصوارم أليس كل شئ فى المرأة يدل على ان الخالق الحكيم الذى اعطى كل شئ خلقه ثم هدى خصها للهدو والسكينة وجعل كل شيء فيها ينافى الشغب والاضطراب ؟

اذا فرضنا وقامت الدنيا اجمع تهب النساء حقوق الاشتغال باشغال الرجال على رغم انف نظام الكون فهل يليق باصحاب الدين الفطرى ان يقلدوا الامم الاخرى فى

معارضة احكام الفطرة لهذه الدرجة ؟ هل بعز على القرائح المسلمة السامية ان تضع قانوناً لتحسين حالة النساء عندنا بطريقة يقر عليها الدين والطبيعة والفطرة ؟ هل سدت علينا منافذ الرجاء بالمرة حتى قمنا نقلد الامم فى امراضها القتالة ؟

الفصل السابع

هل يستمر تداخل النساء فى اعمال الرجال فى بعض البلاد

يقول خالق الكون كله : « ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه » ويقول علماء الكون ان فى الطبيعة نظاماً خاصاً لو تعدى الانسان حدوده او لو همّ بنقضه تصدته احداث من الطبيعة نفسها حتى تجليه عن ظهرها أو يستقيم

وحياة الانسانية من أول نشأتها الى اليوم مدرسة كلية يتعلم منها الانسان كلما يحتاج اليه اذا اراد ان يهتدى الى نهج الطريق

أثبتنا فى بحثنا السابق ان اشتغال النساء باشغال الرجال مرض اجتماعى وعصيان لقوانين الطبيعة وكان ذلك الفصل يكفي للدلالة على ان ذلك العصيان يستحيل بقاؤه مهما سترته القشور المزخرفة . ولكننا لزيادة البيان نقول :

ان الذى نعلمه ويعلمه الخاص والعام وتشهد به الطبيعة وكل ذرة من ذرات الوجود ان للمرأة (كمالاً) خاصاً بها لا يتأتى لها الحصول عليه البتة الا اذا صارت زوجة واماً تلد وتربى وتدبر البيت وان كل شىء يبعدها عن وظيفتها ينقص من كمالها ويؤثر عليها تأثيراً سيئاً ونعلم من جهة أخرى ان الانسانية فى رقى دائم الى الامام لا فى تقهقر الى الوراء ولا يكون هذا الرقى الا اذا وافقت المحاولات الانسانية جميع السنن الطبيعية . وبناء عليه فلا تكون الامة كاملة الا اذا توزعت فيها الاعمال على العاملين كل على حسب استعداده ووظيفته الكونية فاذا سمعنا ان فى تلك الامة مثلاً تهجر

النساء البيوت ويعملن مع الرجال فى أشق الاعمال واقساها فلا يليق بنا ونحن اصحاء الابصار والافئدة ان نعتبر ذلك كما لا يجب السعي الى تقليدهم فيه بل يجب علينا وجوباً حتما ان نعتبر ذلك نقصاً ونسعى فى تجنبه لانه مناف للكمال الصحيح مهما كانت تلك الامة مرتقية عنا فى بعض مظاهر المدنية . لاننا عهدنا ان مدنيات كثيرة قامت فى العالم وملأت الكون نوراً وضياءً ثم تلاشت كان لم تكن بسبب عصيان ذويها لقوانين الخليقة . هذه قضية لا يخالفنا فيها حضرة مؤلف (المرأة الجديدة) نفسه فقد قال « نحن لا نجادل فى ان الفطرة اعدت المرأة الى الاشتغال بالاعمال المنزلية وتربية اولادها وانها معرضة لعوارض طبيعية كالحمل والولادة والرضاع لا تسمح لها بمباشرة الاعمال التي تقوى عليها الرجال بل نصرح هنا ان احسن خدمة تؤديها المرأة الى الهيئة الاجتماعية هي ان تتزوج وتلد وتربي اولادها . هذه قضية بديهية لا تحتاج فى تقريرها الى بحث طويل

هنا يعترف حضرته معنا بأن (كمال) المرأة هو في ان تكون زوجة لها اولاد تربيهم ولكنه رجع فقال:

وانما الخطأ في ان نبني على ذلك ان المرأة لا يلزمها ان تستعد بالتعليم والتربية للقيام بمعاشها وما يلزم لمعيشة اولادها ان كان لها اولاد صغار عند الحاجة

نقول ان حالة المسلمين الاجتماعية هي غير حالة الغرب من كل وجه حتى ان الباحث ليرى بالتأمل البسيط ان هذين العالمين لا يمكنهما ان يتحدا على أمر في شأن من الشؤون العمرانية الا اذا فني احدهما في جسم الآخر وصار جزأً منه. وجملة حضرة المؤلف الاخيرة لو قيلت في بلاد الغرب لوجدت من كل فؤاد وتراً يهتز لها بنغمة مخصوصة لا لانها تشير الى كمال يجب السعي اليه ولكن لعدم خلو بيت هناك الا وفيه بنت أو امرأة تعمل عملاً خارجياً لتكسب معيشتها مباشرة او لتجمع مهرها الذي يجب ان تؤديه لمن سيتزوج بها. اما الشرق فانه لم يزل من جهة النساء اقرب الى كمال

الفطرة فلا تقع منه هذه الجملة موقع القبول ابداً بل بالعكس ان كل عائلة فيه تعد اليوم الذى تجبر فيه احدى نسائها على العمل فى الخارج اتعس ايامها وتود ان لو تخلى من على ظهر الارض لكيلا تدرك تلك الحالة السيئة

الغربى يعلم ان فى بلاده نساء بلغن حدود الكثرة لهن اولاد صغار وهن من الفاقة والفقر بحيث يفضلن الفناء المظلم على هذه الحياة النكدة وكثير منهن يقتلن انفسهن هرباً من الموت جوعاً فاذا سمع مثل هذه الجملة اثرت على فوآده وود لو يكون التعليم كذلك . ولكن الشرق الذى لم ير للآن ذلك الدور المحزن رغماً عن هبوطه فى كل حيثية فانه ينكر هذه الجملة انكاراً شديداً بفضل ما لديه من بقية تلك الروح الاسلامية الشريفة ويود ان لو يسعى الرجال فى تخفيف آلام تلك النسوة بدواء آخر

يظن بعض الناس اننا فى جميع اشيائنا تابعون قدم

اوروبا وماشون خلفها ويرى انه يجب ان يكون الامر كذلك لنتقدم . ولكن اقول انها فى طريق ونحن فى طريق آخر واصرح باننا بما لدينا من العوامل الاجتماعية والاصول الحيوية الاسلامية (التى حمتنا للآن من الفناء فى جسم اى امة من الامم كما حصل بالنسبة لغيرنا من الشعوب التى بادت بتأثير الفتوحات) لا نستطيع ان نكون كالغربيين الا اذا تمثلنا فى اجسامهم وصرنا بعضاً من كلهم وهذا ما أراه مستحيلاً مستحيلاً فان روح الاسلام القوية اكسبتنا متانة لن ننسحق بعدها ابداً . متانة تسحقنا بذاتها قبل ان يسحقنا احد

اليك مثالا لذلك : انظر الى بعض اولئك الذين تعلموا فى اوروبا وسحرتهم مموهات تلك المدنية المادية وتشبح فى اذهانهم جمالها القشرى فجعلتهم يقلدون اهلها فى الملبس والمسكن والكلام والسلام وفى كل شيء حتى لو استطاعوا ان يقلبوا صورهم لفعلوا . قلت انظر الى هؤلاء نظرة ثم قل لى كيف تراهم والى أي قبيل تستطيع

ان تنسبهم . هل هم شرقيون ؟ كلا . لانهم يسبون الشرق والشرقيين ويقبحون عوائد اهله اجمعين ولا يرون فيه الامظاهر التأخر والتقهقر . اينما ولوا وجوههم تأففوا وحيثما وقفوا تحسروا . ولكن هل هم غربيون ؟ كلا . فان وجوههم تشهد بغير ذلك واعمالهم الجوهرية تنافى دعواهم بالفعل وان كانوا يزعمون انهم كذلك بالقول تجدهم بلا جد ولا همة ولا اريحية ولا شيء مما ينفع او يدفع . لم ذلك ؟ لانهم ارادوا ان يقلدوا الغربيين فوجدوا من طبيعتهم اكبر مانع لهم عن ذلك ثم لم يستطيعوا ان يرجعوا الى ما كانوا عليه بما اكتسبوه من التقليدات القشرية التى صارت لديهم ملكات فانسحقوا مكانهم على مشهد من اولى البصر والبصيرة

اولئك بخلاف شبان بلغاريا والصرب مثلاً فان احدهم اذا قضى حياته المدرسية فى باريز او لندره او برلين رجع الى وطنه وصار مستودع الثقة ومحط رحال الآمال من بنى جلدته ويكون جديراً بذلك لما يبديه

من جلائل الاعمال وعلو الهمم . ذلك لما بين هذه الشعوب من تشابه العوامل الحيوية . هذه بديهة لو دقق فيها القارىء لرآها فى عداد المحسوسات وبها وحدها يمكننا ان نفسر عدم صلاحية كثير من الشبان المصريين الذين يتعلمون فى اوروبا

يقول قائل كيف ذلك ولدينا من الشبان الذين تعلموا فى اوروبا عدد ولو لم يكن كبيراً الا انهم اصبحوا قدوة للنشأة الجديدة فى الاخلاق والهمم . نقول لا ننكر ذلك وهذا مما يقوى دعوانا ولا يفسدها . غير اننا نرجو حضرة المعترض ان يدرس اولئك الشبان جيداً ليرى بعينيه ان تعلمهم فى اوروبا لم يزدهم الا تمسكاً بعوائدهم وعقائدهم وحناناً على ابناء ملتهم فهم لم يأخذوا من اوروبا الا علومها وفنونها تاركين لها مقابحها ومشائنها ولم يكسبهم مقامهم فى تلك البلاد الا معرفة بان المدنية المادية لا تعلق لها الا بسعادة الجسم الفانى وانها ناقصة من الوجه الروحانى الذي هو مطلوب السعادة الكاملة والمدنية

الفاضلة التى لم يزل يئن للحصول عليها هذا النوع الانسانى الولهان حتى اذا آبوا الى بلادهم جعلوا نصب اعينهم مجاراة تلك الشعوب المتمدنة فى معارفها المادية وزادوا عليها روحانية الديانة الاسلامية التى تحث على طلب تلك العلوم وتستخدمها فى انزال الروح منازلها الكمالية . فاما امثلة هؤلاء الشبان فى بلادنا فيعرفه المصريون ولا ينكرونه واما امثلتهم فى الخارج فبلاد الهند التى يمضى بعض شبانها المسلمين سنوات كثيرة فى اعظم كليات لندره ثم يؤوبون الى بلادهم وهم اشد تمسكاً بالاسلام واكثر معرفة بفضائله واكبر شغفاً بنشره من اولئك الذين لم يخرجوا من بلادهم ولم يحتكوا مع المتمدنين فى أي شأن من الشؤون الحيوية .

أما وجه قولنا ان هذه المشاهدة تقوى دعوانا وتؤيدها هو ان هؤلاء الشبان بتعلمهم فى اوروبا لم يفقدوا شيئاً من شرقيتهم بل ادوا فرضين مهمين من فروض دينهم الفرض الاول طلبهم للعلم من البلاد

الصحيفة « وقل رب زدني علماً » « اطلبوا العلم ولو بالصين » والفرض الثاني السياحة في بلاد الغير والاعتبار باحوالهم « قل سيروا في الارض فانظروا » و « أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور »

لنرجع الى ما كنا فيه من مسألة المرأة فنقول : اذا كان الشرقي لم يزل لليوم يحجر على امرأته وبناته الخروج من البيت للزيارات البسيطة (وفي ذلك غلو كما لا يخفى) ويدافع عن هذه العادة بكل قواه فكيف نطمع ان يعلم ابنته تعليماً يعدها لان تكون عاملة (في ورشة) او بائعة في محل تجاري ؟ اذا كان لم يزل الشرقي يحظر على امرأته وبناته ان يسمعن صوتهن لرجل فكيف نستطيع ان نقنعه بان يرشح ابنته لان تكون خطيبة في الجامع او سياسية تبدي رأيها على ملأ الاحزاب ؟ كم من الزمن يلزمنا ان نمضيه لكي تستعد هذه القلوب

الشرقية لأن تغير من اتجاهاتها فى هـذه المسألة مع علمك بأنها خالطت الاوروبيين اصحاب هذه العوائد مائة سنة ولم تزدد الا رسوخاً فى عوائدها ؟ اذا حكمت بأن نجاحنا مرتبط بهذه المسألة واننا بدونها لن نقوم من وهدتنا ابداً أفلا تسمح لى ان اقول اننا نتلاشى لا سمح الله قبل ان نصل اليها ؟

ولكن لما هذا اليأس كله ؟ اذا كنا كلنا فى وفاق بان اشتغال النساء باشغال الرجال داء اجتماعى شـديد الوطأة فلماذا لا نستفيد من كراهة المسلمين له فنعمل على ازالته بدل نشره وتوسيع دائرته ؟ اذا كنا نعلم ان فساد الامم وتلاشيها لا سبب له الا عصيانها لقوانين الوجود وتحققنا ان مشاركة النساء للرجال فى الاعمال الخارجية عصيان لا شبهة فيه وان ناموس الترقى سيرجع فى المستقبل كل شىء الى وضعه الطبيعى بعـد إيقاع العقاب الصارم على مخالفيه فلماذا لا نأخذ الأمر من اوله فنسعى لمداواة امورنا باقرب الطرق الى السنن

الوجودية ونكتفى مؤونة ذلك العقاب المريع ؟

الفصل الثامن

هل تحتجب المرأة عن الرجال

نحن بعد ان اوضحنا ان للمرأة (كمالاً) سامياً يجب ان تناله فى الوجود وبرهنا بالادلة العلمية التجريبية ان اشتغالها باشغال الرجال وطلبها لمعيشتها بنفسها فضلاً عن انه يبعدها عن كمالها يقتل فيها سائر خصائصها التى هي سبب سعادتها ويعرضها لاشد انواع الهبوط واثبتنا بالبراهين الناطقة الحسية على انها يجب ان تكون تحت كفالة الرجل يتعب ويدأب ليغذيها ويصلح من شأنها وتبقى هى للتربية الطفلية . قلنا بعد ان اوضحنا كل ذلك فى فصولنا المتقدمة وجب ان يكون للرجل حق مهم عليها بازاء كل هذه الحقوق التى عليه لها وذلك الحق المهم الذى عليها له هو ان تعترف برئاسته لانه من

العبث بالنظام ان نكلف الرجل بكل تلك الواجبات ثم
لا نهبه بازاءها ذلك الحق الطبيعي الذي هو نتيجة لازمة
لكل تلك الواجبات التي يؤديها اليها بل ان ذلك الحق
الذي للرجل على المرأة مما لا يحتاج الى ايضاح فانه
فطري تحس به المرأة قبل ان يذكرها به مذكر ويشعر
به الرجل شعوراً ضرورياً . وبناء عليه فمسئلة حجب المرأة
او كشفها صارت من خصائص الرجل مباشرة فهو ان
شاء حجبها وان شاء فعل غير ذلك . ومن العبث المحض ان
نكلف الرجل بكل تلك التكاليف المهمة ثم نسلبه كل حق
على امرأته . هذا فضلاً عن كونه اجحافاً مما لا يمكن تحققه
في عالم الانسان المبنية افعاله كلها على الحقوق المتبادلة
بين سائر افراده . فالمعترض على حق الرجل على المرأة
يكون في الحقيقة معترضاً على الطبيعة نفسها والاعتراض
على الطبيعة ولو كان شائعاً بين الناس على غير علم منهم
الا انه ذاهب ادراج الرياح اولاً فاولاً ولو كان الانسان
قبل ان يطلب حصول شيء يتحرى هل هو موافق

للسنن الطبيعية ام لا لوجب علينا ان نحذف من قواميسنا لفظة «مستحيل» اذ ليس المستحيل الا المخالف لسنة الكون

ومن ضمن البراهين المحسوسة على ان حجب المرأة وكشفها من حقوق الرجل مباشرة هو ان محرري النساء اذا ابدوا افكارهم وطلبوا طلباتهم لا يوجهون الخطاب الا للرجل نفسه فقد كتب حضرة مؤلف (المرأة الجديدة) يقول: « وانما نكتب لأهل العلم وعلى الخصوص للناشئة الحديثة التي هي مستودع امانينا في المستقبل فهي التي بما اكتسبته من التربية العلمية الصحيحة يمكنها ان تحل مسئلة المرأة المقام الذي تستحقه من العناية والبحث

هل بعد هذا برهان قاطع على ان مقادير النساء بيد الرجال يوجهونها كيف يشاؤون ويتصرفون في شؤونها بما يريدون اذ لو كان لهن حق طبيعي من هذه الحيثية له وزن في ميزان الوجود لوجه الخطاب اليهن بنبذ سيطرة

الرجال عنهن بل لما انتظرن ان يقوم احد بالدفاع عنهن مطلقاً . وانى لا اعتبر كل طلب يقصد به صاحبه خروج المرأة عن طاعة الرجل الا كطلب أولئك الكتاب الذين يكتبون ويبرهنون على ان اغتصاب تلك الأمة القوية لبلادهم هادم لاستقلالهم مجحف بحقوقهم فان كانت تلك الأدلة من الشعوب المغلوبة تخفف من وطأة الأمم الغالبة بدون ان تكتسب الأولى حقاً طبيعياً له وزن فى ميزان الوجود افادت كذلك كتابات محررى النساء . على ان هذا قياس مع الفارق فان أولئك الشعوب تستطيع ان تكتسب ذلك الحق الطبيعى بجدها واجتهادها فتتخلص من وطأة تلك الامم بخلاف النساء فان (كمالهن) يقتضى ان يخدمهن الرجال ويغذوهن ويكفوهن مؤونة المصارعة فى الحرب المعاشية القاسية . وهذه الخدمة تقتضى بلا شك ان يكون للرجل حق التحفظ والهيمنة على المرأة . وانا لا اقول انهن لا يستطعن ان ينلن استقلالاً تاماً لا سيطرة للرجل فيه .

ولكن الرجل فى ذلك الحين لا يرى أي واجب عليه يؤديه للمرأة فيتركها تغذى نفسها بنفسها فتزاحمه فى العمل ويزاحمها وتكون كما كانت قبل ألوف من السنين اوكما هى الآن عند الشعوب المتوحشة مستقلة ولكن مهانة محتقرة . فان كان محررو المرأة يرون ان يوقعوها فى تلك الهاوية فاللهم حوالينا ولا علينا

ان أقل تأمل فى حالة الامم التى يظن الناس ان نساءها بلغن مبلغاً عظيماً من الحرية يرينا ان تلك الحرية الموهومة تحت تصرف الرجال مباشرة بمعنى انهم لو ارادوا حجزهن فى البيوت لما وسع النساء الا الرضوخ كما رضخن ويرضخن لكل حكم للآن . هذه حقائق لو أراد الانسان ان ينكرها بلسانه شهد بها قلبه ونم بها عليه وجهه

يقول حضرة مؤلف (المرأة الجديدة) : « اذا كانت معاملة الرجال مجلبة للفساد فلماذا تداس حرية المرأة وتحترم حرية الرجل ؟ هل يختلف نظر العدل

بالنسبة الى الرجل والمرأة وهل يوجد حقان حق للرجل وحق للنساء ؟ أليس كل ذى اختيار موكولا الى اختياره يتصرف به كيف يشاء متى لم يخرج فى عمله عما حدده له الشرع والقانون » نقول لا يغنى هذا القول شيئاً كما لا تغنى شكاوي الامم المغلوبة حيث يقولون : اذا كان التسابق فى ميدان الحياة مباح لكل انسان فلماذا تعرقل مساعي الامم المغلوبة ويفتح الطريق الامم الغالبة ؟ هل يختلف نظر العدل بالنسبة الى الاولى والثانية ؟ وهل هناك حقان حق للامم القوية وحق للامم الضعيفة ؟ أليس كل ذى اختيار موكولا الى اختياره يتصرف به كيف يشاء متى لم يخرج عما حدده له الشرع والقانون الخ الخ . فاذا كانت هذه الشكاوى نفعت الامم المستضعفة وحررتهم من نير الامم القوية تنفع ايضاً امثال تلك الجمل بالنسبة للنساء

لماذا لا تنفع ؟ لانه ثبت باستقراء نواميس الكون وقوانين الحياة الانسانية انه لا توجد المساواة الا مع

تكافؤ القوة . هذه البديهة يمكن ان يراها كل انسان فى كل شأن من شؤون حياته وحياة الامم . اذن يجب علينا قبل ان نتكلم باسم المساواة ان نبحث هل هناك تكافؤ فى القوة ؟ ولا يستطيع مجادلونا ان يدعوا ان هذا الناموس جائر فان الجور كل الجور هو ان تعطى حقوقاً متساوية لذوى قوى مختلفة

والسبب فى عدم فائدة امثال هذه العبارات ليس ما ذكرناه فقط بل لكونها فى واد وحقيقة الواقع فى واد آخر فان الخالق لم يخلق الرجل والمرأة الا ليكونا شخصاً واحداً . فالرجل فى حد ذاته له نواقص كبيرة لا تكملها الا المرأة وفى المرأة نواقص لا يكملها الا الرجل بشرط ان هذه النواقص المتبادلة تتكامل من نفسها عند حدوث الاقتران مباشرة وتوحى طبيعة الحال لكلا الزوجين الواجب الذى عليه للآخر . اذا تقرر هذا فكثرة الكلام فى تحديد وجه المساواة بين شيئين كل منهما محتاج للآخر ليس له معنى البتة . والبحث فى

مسألة استقلال كل منهما عن الآخر شيء لا أفهمه ولا استطيع ان افهمه مطلقاً. كيف يحسن بنا ان نعطى الاستقلال لشيئين خلقا ليكونا شيئاً واحداً وكيف نحدد وجه المساواة بينهما وكل واحد منهما محتاج للآخر ولا يتم كماله الا به؟ غاية ما أفهمه ان مثل الساعين فى ذلك كمثل الساعي فى ايجاد الاستقلال بين العنصرين المكونين للماء الاوكسيجين والايدروجين . فاذا كان من الممكن ان يكون كل من هذين العنصرين مستقلاً عن الآخر مع تكوينهما للماء كذلك يمكن ان يكون كل من الرجل والمرأة مستقلين مع تكوينهما للعائلة

يقولون وكيف بحثت فى فصولك المتقدمة عن تحديد مركز كل من الرجل والمرأة وسعيت فى ايجاد الاختلافات بينهما أقول ان مثلى فى ذلك كمثل الكيماوى سواء بسواء يبحث عن خواص الاوكسيجين ووزنه النوعي ومناشيء وجوده ويدرس خواص الايدروجين من كل تلك الحيثيات أيضاً . فان كنت قلت ان المرأة أضعف

من الرجل فانا كالكيماوى يقول ان الاوكسيجين أثقل من الايدروجين . وان كنت قلت ان قانون التوازن الحيوى ومحض سعادة الجنس الرقيق يقضيان ان تضحى المرأة من حريتها فى سبيل تشييد العائلة اكثر مما يضحى الرجل فانا كالكيماوى من هذه الوجهة أيضاً حيث يقول انه يجب ان يضحى الايدروجين من حجمه اكثر مما يضحي الاوكسيجين لتكوين الماء

ومن العجيب ان محررى النساء يستكبرون خضوع المرأة للرجل ويعدونه استعباداً واسراً ولا يفتكرون فى اهلاك الرجل لنفسه وسعيه لتغذية امرأته ولا يعدونه شيئاً مع انا لو قارنا الطاعة التى تؤديها المرأة للرجل بما يكابده الرجل من آلام الكد والكدح ومصائب الجسم والروح فى سبيل راحتها لوجدنا ان الرجل اكثر عبودية للمرأة منها له . وان شوهد كثيراً ان خضوع المرأة للرجل سبب للكثير من آلامها واكدارها فذلك نتيجة الجهل المتبادل بينهما ليس الا . ولكن مع التهذيب

والتربية يرتقي كل من المرأة والزوج في نظر بعضهما وتتعين امامهما واجباتهما من نفسها ويبعد من فكرهما كل شيء يقال له استقلال لانه لفظ لا معنى له بين كائنين خلقا لان يكمل احدهما الآخر

اذا تقرر هذا كله وثبت ان الرجل والمرأة غير مستقلين امام بعضهما بل هما شيء واحد فمسألة احتجاب المرأة او ابتذالها صار بالاولى حقاً مشتركاً بين الرجل والمرأة فليس لها وحدها ان تنبذه بدون اقرار الرجل على نبذه

بقي علينا هنا ان نسأل : هل الحجاب علامة الذلة والاسر كما يقولون ؟ وهل يمنع المرأة عن بلوغ كمالها ؟ وهل ينتظر زواله وتلاشيه ؟ فنقول : —

الفصل التاسع

هل الحجاب علامة الاسر أو هو ضمانة الحرية

درسنا فى فصولنا المتقدمة ماهية المرأة وكمالها وبيّنا بالادلة التجريبية. ان ذلك الكمال لا يتأتى لها الا بعدم تداخلها فى اعمال الرجال وبحثنا بالدقة المضار التى تنجم يومياً من اختلاط الجنسين ببعضهما ونريد فى هذا الفصل ان نبرهن على ان الحجاب هو الضامن الوحيد لاستقلال المرأة والكافل الفرد لحريتها ورد سيطرة الرجال عنها فنقول :

لا يجوز لنا بصفتنا باحثين فى موضوع عمرانى مثل هذا ان نغتر بأي مظهر من مظاهر هذه المدنية المادية الموقتة ونتخذه قاعدة للحكم فى شىء قبل تحليله الى عناصره البسيطة تحليلاً دقيقاً . نريد بهذه الجملة انه لا يجوز لنا ان نعتمد على ما نراه من الحرية المموهة التي

يتمتع بها نساء هذه المدنية فتحسب ان مظاهرها الفتانة صبغاً ثابتة تزيد بهجة ولا تزول بمرور الزمن . هذه غلطة عمرانية تكفي وحدها ان تقود الباحث رغم أنفه الى مدركات سطحية لا معنى لها في ذاتها ولا تتفق مع حقيقة الواقع . وان وافقته في زمن من الازمان فلن توافقه في مستقبل ليس بالبعيد لعدم انطباقها على الفطرة البشرية فان غيرة الرجل وان دفنها رماد اللهو حيناً من الاحيان وسترتها بعض اشكال المدنيات مدة من الزمان فانها لا تموت ابداً بل يأتى عليها يوم تتقد فيه اتقاداً وتبعث اهلها لاخشن ما يتصور من مظاهر أسر النساء والتشديد عليهن

كلامى هذا وان ظهر خيالياً شعرياً لمن لم يلق نظرة عامة على مجموع أحوال الانسانية والانسان الا انه بالنسبة للبعض الآخر حقائق ساطعة ليست مقبولة للعقل فقط بل ارانا التاريخ امثلتها فى كل امة . فلنورد هنا مثالاً مما حصل فى دولة الرومان وهى الدولة التى

تولدت منها عموم الدول الاوربية المتمدنة فنقول :

نشأت دولة الرومان فى روما فى القرن السادس قبل الميلاد صغيرة فقيرة ثم شبت قرناً بعد قرن حتى بلغت مبلغاً عظيماً من المدنية وكان النساء فيها متحجبات ملازمات لبيوتهن قالت دائرة معارف القرن التاسع عشر :

كان النساء عند الرومانيين محبات للعمل مثل محبة الرجال له وكن يشتغلن فى بيوتهن . اما الازواج والآباء فكانوا يقتحمون غمرات الحروب وكان أهم اعمال النساء بعد تدبير المنزل الغزل وشغل الصوف ثم قالت : «وكن مغاليات فى الحجاب لدرجة ان القابلة (الداية) كانت لا تخرج من دارها المحفورة وجهها ملثم باعتناء زائد وعليها رداء طويل يلامس الكعبين وفوق ذلك عباءة لا تسمح برؤية شكل قوامها » اه

فى ذلك الحين حين احتجاب النساء برع الرومانيون فى كل شىء : نحتوا التماثيل العظيمة وشيدوا الهياكل الفخيمة وفتحوا البلاد وملكوا العباد واستبدوا بصولجان

الملك والعظمة دون سواهم من الامم . ولكن دعاهم بعد ذلك داعي اللهو والترف الى اخراج النساء من خدورهن ليحضرن معهم مجالس الانس والطرب فخرجن كخروج الفؤاد من بين الاضالع فتمكن ذلك العنصر المهاجم (الرجل) لمحض حظ نفسه من اتلاف اخلاقهن وخدش طهارتهن ورفع حيائهن حتى صرن يحضرن التياترات ويغنين فى المنتديات وساد سلطانهن حتى صار لهن الصوت الاول فى تنصيب رجال السياسة وخلعهم فلم تلبث دولة الرومان على هذه الحالة حتى جاءها الخراب من حيث تدرى ولا تدرى حتى ان القارئ للتاريخ ليندهش حينما يرى ان ذلك الصرح الرومانى الباذخ قد هدمته المرأة حجراً بعد حجر بيديها الرقيقتين لا لسوء نية منها ولا لكونها مستعدة للافساد بل لافتتان الرجال بها وتناظرهم عليها . هذه حقيقة سياسية لا مجال للجدال فيها . قال العلامة (لويز پرول) فى مجلة المجلات (مجلد ١١) تحت عنوان الفساد السياسى ما يأتى : « ان

فساد الاسس السياسية وجد فى كل زمان ومن الغريب المدهش (تأمل) ان مظاهره فى الزمن السابق مشابهة تماماً لمظاهره فى الزمن الحاضر بمعنى ان المرأة كانت العامل الاقوى فى هدم الاخلاق الفاضلة » كان الاجدر بهذا الكاتب العمرانى ان لا يلصق تهمة الافساد بالمرأة لان الرجل هو الذى افسدها وجعلها احبولة للافساد لمحض امياله الدنيئة. ثم أخذ ذلك الكاتب يقارن بين العلامات المنذرة اليوم وبين ما كان فى عهد جمهورية الرومان حتى قال: « لقد كان الرجال السياسيون فى آخر عهد الجمهورية الرومانية يعيشون بصحبة النساء ذوات الطباع الخفيفة اللاتى كان عددهن بالغاً حد الكثرة. فصار الحال اليوم (تأمل) كما كان فى ذلك العهد ترى النساء اندفعن فى تيار الحب البالغ حد الجنون وراء البذخ واللذات» اه

ماذا حصل فى امة الرومان المشهورة بحب المجد والعظمة فانساها سابق تاريخها حتى تهدمت صروح

عزها امام أعينها بدون ان تجد من نفسها الغيرة عليها ؟ وكيف يتصور ان امة الرومان التى كانت فى ايام عظمتها مغالية فى حجب النساء تسمح لهن بعد ذلك ان يتسلطن على رجال السياسة ويعزلنهم وقتما ارادوا ؟ ماهذا الانتقال العجيب من حالة الى اخرى ؟ الا يوجد بينهما تدريج طبيعى ؟ نعم ان ذلك الفساد النسائى نمى على حسب القاعدة الطبيعية : بدا صغيراً حقيراً ثم استطار شره حتى صار داء عضالا فتك بالجسم كله دفعة واحدة . قالت دائرة معارف القرن التاسع عشر : « ولكن لم يسد هذا الحب الجنونى للترف بالنسبة للنساء الا فى عهد الامبراطورية . اما فى الايام الاولى للجمهورية فقد كانت المرأة ملازمة بيتها تغزل فيه الصوف . ولكن البذخ تسرب الى روما شيئاً فشيئاً حتى قام (كاتون) ينذر بالخطر المحدق الذى سيلتهم كل شىء — مثل كاتون مثل المدافعين عن الحجاب اليوم فان التاريخ يعيد نفسه — وبعد ذلك بقليل لم يقف البذخ

« والترف عند حد » اه ثم اخذت دائرة المعارف تسرد انواع الالبسة واصناف الزينات النسائية مما لا فائدة من ترجمته هنا

فلننظر الآن ماذا قال (كاتون) لقومه وكيف انذرهم بخطر خلع الحجاب وكيف صدقت اقواله ؟ كل هذه حقائق تاريخية حصلت لسوانا فالواجب علينا معرفتها جيداً لنستطيع تجنبها او بالاقل لنعمل ما نعمله ونحن عارفون باننا فى سبيل الخطر :

روت دائرة معارف القرن التاسع عشر انه لما حصلت لدى الرومانيين ثورة يقصد بها نسخ القانون الذى كان يحدد بذخ النساء وتبرجهن قام (كاتون) وهو ذلك الرومانى المشهور بالفلسفة والحكمة بين جمهور الرومانيين فى القرن الثانى قبل الميلاد وقال : « اتتوهمون معشر الرومانيين انه يسهل عليكم احتمال النساء والرضاء بهن اذا مكنتموهن من فصم الروابط التي تقيد استقلالهن وتخضعهن لازواجهن ؟ ألم يصعب

علينا حتى مع وجود هذه القيود الجائرة الى اداء واجباتهن ؟ اما ترون انهن سيصرن مساويات لنا وسيوقعننا تحت نيرهن ؟ اى حجة معقولة يمكنهن بسطها لتبرئة اجتماعهن الثوروى ؟ لقد اجابتنى واحدة منهن قائلة : اننا نريد ان نكون متلألآت فى الذهب والاقمشة القرمزية وان نتمشى فى طرق المدنية فى أيام الاعياد وسائر الايام الاخرى وان نركب فى العربات الفخيمة لاجل ان نظهر انتصارنا على ذلك القانون المنسوخ — الذى يجبرهن على عدم الابتذال — وان نتمتع بحرية انتخابكم — ما اشبه اليوم بالامس — ونريد ايضاً ان لا تضعوا حداً لمصاريفنا وبذخنا

« فيا ايها الرومان لقد سمعتمونى كثيراً ما اشكو من اسراف الرجال والنساء والعامة والمتشرعين انفسهم ايضاً . ولقد سمعتمونى كثيراً ما اقول ان الجمهورية مصابة بدائين متناقضين الشح والبذخ وهما الدآن اللذان قلبا الممالك العظيمة رأساً على عقب ثم

اردفت دائرة المعارف هذه الخطبة بقولها ان (كاتون) لم ينجح فى دفاعه عن ذلك القانون ولكن تحققت انذاراته تماماً.» ثم قالت بالحرف الواحد : «وفى هيئاتنا الاجتماعية الحاضرة التى فيها النساء يتمتعن بحرية مفرطة (تأمل جيداً) نرى دناءة ذوقهن وميلهن الشديد الذى يحملهن دائماً على الاشتغال بجمالهن وبكل ما يزيد حسنهن ورواءهن كل ذلك اكثر خطراً وهؤلاء مما كانت عليه الحالة فى روما» انتهى

دعنا الآن من هذا وهلم ننظر ماذا حصل بعد فساد الملك الرومانى وتغلغل الخلل فيه؟ هل استمرت النساء متلألآت فى الذهب والاقمشة القرمزية رائحات غاديات فى الطرقات وراكبات العربات الفخيمة كما كان شأنهن فى ايام عز المملكة الرومانية؟ كلا ولكن رأينا الناس اسرفوا فى هضم حقوقهن والحط من مقامهن حتى حرموا عليهن اكل اللحم والضحك والكلام وغالوا فى ذلك حتى وضعوا فى افواههن اقفالا متينة يسمونها

(موزلبير) لا فرق فى ذلك بين عال ووضيع او عالم وجهول . ثم سرى امرها الى اكثر من ذلك حتى اجتمع فى روما داءها بجمع فى القرن السابع عشر مكون من فطاحل الرجال وطرحت فيه هذه المسئلة : هل للمرأة روح ؟

وانى لو اردت ان اشرح للقرآء كيفية تحقيق الجرائم على النساء والآلات المختلفة والاساليب الشيطانية للتعذيب لما وجدت من نفسى الجلد على وصف هذه المظالم المرعشة : ثم لو كلفت أحد النقاشين برسم الهيئات بذاتها تمثل النساء فى حالة صب القطران على اجسامهن او ربط ارجلهن فى خيول مختلفة وتركها وشأنها تركض الى كل جهة لتمزقهن تمزيقاً او ربط جماعة منهن فى سارية وتحتهن نار هادئة مدة ايام مديدة ليمتن على تلك الحالة بتساقط لحومهن وشحومهن او . او . مما يذهب بالفؤاد حسرة — قلت لو كلفت أحد النقاشين فرسم لى ذلك من مجلة المجلات (مجلد ١٥) لرأى القراء منظراً لا

يذهب عن فكرهم ابداً : منظراً يريك الى أى حالة وصل اسر الرجل لهذه المرأة المسكينة !

الناظر لهذه الانتقالات يندهش ويأخذه العجب ويسائل نفسه قائلاً : كان النساء بالامس يمرحن فرحات بما اوتينه من الحرية والسلطة على الرجال فكيف صرن اليوم موضوع اقسى المظالم ومحل البهيمية البشرية البالغة حد المكر والجحود . ما هذا التحول العجيب ؟ ما هذا التبدل الذريع ؟ ما الذى هدم تلك الحرية الاولى ووسم وجه المرأة بميسم الاسر والعبودية لهذه الدرجة الوحشية؟

كل هذه اسئلة يلقيها الناظر فى التاريخ على نفسه ولا يستطيع ادراكها الا اذا ذهب فنقب فى اصول علمي النفس والعمران وهو بحث طويل الذيول نقول لك زبدته فى كلمتين :

لما امتد ملك الرومانيين ونالوا بسطتى العظمة والنفوذ على الامم ولم يبق لهم فى الارض مناظر تداخلهم حب الترف والرفاهية وهما لا يتمان الا باختلاط الجنسين

معاً وساعدهم على ذلك ما كانت علقته اذهانهم من تعاليم ملحدة اليونانيين ومقلديهم من الرومانيين ايضاً فشرعوا فى كشف الحجاب عن نسائهم وترقوا فى ذلك شيئاً فشيئاً حتى صرن المسيطرات فى الامور السياسية وحصل فى هذا الاختلاط من الدنايا والمقاذر ما اكره ان يكتبه قلمي هذا ففاتت هممهم وخارت عزائمهم وتسفلت نفوسهم فوقعوا فى التناظر والتسافك فازداد الفساد فيهم نشوبا وحدثت فى اثناء ذلك احداث غيرت اتجاهات الافكار بالمرة واشربت النفوس ان النساء سبب ذلك الفساد كله فاخذ الحقد عليهن يتزايد شيئاً فشيئاً والتضييق يشتد يوماً فيوماً حتى وصل الامر الى ما وصفت لك من حالة القرون الوسطى لغاية القرن السابع عشر ومقدمة الثامن عشر وأرى الرجال اليوم فى المغرب يريدون ان يعيدوا ذلك الدور بعينه بما يخترعونه يومياً من اسباب فتنة النساء والافتتان بهن وما يبتكرونه من ضروب الوسائل لمهاجمة عفتهن وطهارتهن وايقاعهن فى مثل ما

وقع فيه اخواتهن الاقدمون وقد ادرك ذلك عقلاؤهم وفلاسفتهم عموماً وصار من الوضوح بحيث يكتب فى دوائر المعارف كما مرّ بك وسيمر بك اكبر من ذلك . فاذا كانت المرأة المسكينة الموبة فى يد الرجل لهذه الدرجة يحبسها ما دام متديناً ثم لما يداخله حب اللهو والترف يخرجها ليلعب بضعفها ثم لما يفتنها ويتلف آدابها بما يخترعه لها من انواع البذخ والزينة يراها حملا ثقيلا عليه فيرجعها الى حبسها باشد مما كان — قلنا اذا كان حال المرأة كذلك فى يدالرجل فاحتجاب المسلمة خير كفيل لها من الوقوع فى مثل هذه الحالة فقد حاطها الاسلام بقوانين حكيمة رسخت فى اعماق القلوب لا يستطيع المسلمون هدمها الا اذا غيروادينهم وبدلوه كله . الا ترى انه قد مضى على المرأة المسلمة نحو من ثلاثة عشر قرناً وهى محفوظة من كل الانقلابات التى طرأت على غيرها من نساء العالم كما مرّ بك طرف منه فاي نعمة اكبر من نعمة الحجاب اذا كان هو المانع للمرأة

من ان تكون العوبة فى يد الرجل وعرضة لاهوائه يصرفها كيف يشاء؟ قل لى اى مانع حمى النساء المسلمات من مثل تلك القسوة التى التهمت اخواتها فى الغرب قروناً مستطيلة غير هذا الحجاب؟

يقول حضرة مؤلف (المرأة الجديدة) ان فى اوروبا احزاباً تطلب مطالب مجحفة « ومع ذلك لم يخطر على بال احد منهم ان يطلب حجاب النساء بل نرى الامر بالعكس فان المتطرفين من ارباب المذاهب لا يطلبون التوسع فى حرية المرأة والزيادة فى حقوقها الى ان تصير مساوية للرجل فهم على شططهم متفقون فى ذلك مع ارباب المشارب المعتدلة فما هو سر هذا الاتفاق وما سببه؟ » اما نحن فنقول ان مؤسس فلسفة العصر الحاضر (اجوست كونت) وجميع الحسيين من فلاسفة الوقت وهم كبار رجاله المعول عليهم فى الحكم على حقائق الاشياء يرون ان المرأة لم تنل فقط قسطاً اكبر مما يلزم

من هذه الحرية المموهـة بل يرون ايضاً انها خرجت عن حدودها الطبيعية وقد مر بك من اقوالهم فى الفصول السابقة مايثبت ذلك . وقد ورد فى دائرة معارف القرن التاسع عشر شكوى مؤلمة من هذا القبيل – ولدينا عشرات من نوعها من اقوال اكبر عقلاء العصر — قالت عقب ذكرها الخراب الذى طرأ على روما بسبب الافتتان بالنساء : « وفى هيئاتنا الاجتماعيـة الحاضرة

التي فيها النساء يتمتعن بحرية مفرطة (وصاحب الدار ادرى) فان دناءة ذوقها وميلها الشديد الذى يحملها دائماً الى الاشتغال بجمالها وبكل ما يزيد حسنها ورواثها كل ذلك اكثر خطراً وهولاً مما كانت

عليه الحالة فى روما » هذه الجملة ربما يسمعها الشرقي فيندهش لانها بخلاف ما يظن وله المذر فى ذلك فانه طالما حسن ظنه بكل شكل من اشكال هذه المدنيـة وتوهم انها تعلو عن مدارك الشرقيين وتسمو عن متناولهم وان ليس لهم حق الانتقاد عليها بوجهما . ثم قالت دائرة

المعارف بعد أَن وصفت من الاحوال ما وصفت :

نعم انا لسنا اول من لاحظ هذا الاثر السيء الذى يحدثه حب النساء للزينة يوماً فيوماً على اخلاقنا (تأمل) فإن اشهر كتابنا لم يهملوا الاشتغال بهذا الموضوع الكبير وكثير من اقاصيصنا التى قوبلت بالاستحسان العام قد وصفت بطريقة مؤثرة الخراب الذى يجره على العائلات الشغف الجنونى بالتزين والتبرج . فكيف النجاة من هذا الداء الذى يقرض مدنيتنا الحالية ويهددها بسقوط سريع جداً وان شئت فقل بانحطاط لا دواء له »

فاذا كانت اوروبا مع قوتها ومنعتها ووسائلها تنادى بلسان دوائر معارفها واشهر كتابها بالويل والثبور من تبرج النساء بحيث رأت ان حالتهن تهددها بسقوط سريع جداً فما بالك لو كان الشرق مصاباً بهذا الداء نفسه مع ضعفه اليوم ؟ يرانى القراء لا اختار الحجاب للنساء طلباً لعفتهن ولا اريد ان اطلبه لهذا الغرض لانه

هضم لحقوق ذلك الجنس الرقيق صاحب العواطف الفاضلة فان الغريزة الادبية لدى النساء اسمى منها لدى الرجال يقيناً واعراضهن اطهر من اعراضهم فى الجملة وانما اختاره لانه الحصن الحصين الذى يأمن فيه النساء غائلة الرجال وشرتهم فانهم اعتماداً على ان ليس فى تركيبهم ما يفضحهم لو خرقوا سياج العفة يوماً او كل يوم تراهم يتكالبون بنهمة افراطية على اغراء النساء بكل حيلة وبكل وسيلة لانه ثبت باستقراء حوادث العالم ان الرجل هو المغري للمرأة على خدش وجه الادب حتى ان جريدة المقطم التى نددت بالحجاب من وجهه عمرانية فى ٨ فبراير سنة ١٩٠١ تشهد بهذه الحقيقة الجلية فقد قالت :

وتاريخ كل هيئة اجتماعية يشهد ان الرجل هو المهاجم لفضيلة العفة والمرأة هى المدافعة عنها » انتهى . اذن أليس من العدل ان نبحث عن وسيلة نمنع بها شرة هذا الرجل الغشوم القاسى عن هذه المرأة الرقيقة الجانب ؟ هل من العدل ان نعرضها لمخالب هـذا الرجل الظلوم

وحيله ثم نكافها بتبعة خرقها لسياج العفة ؟ كيف يليق بنا ان نؤاخذ المرأة على عدم العفة اذا وقعت فى اشراك الرجل وهو الكائن الذى لا تنجو من بين يدى حيله الشيطانية الاسود فى آجامها ولا الثعابين فى اوكارها ولا العقبان فى شواهقها ؟

ماذا يريد الناس من المرأة؟ ايريدون ان تكون ملكاً فى عصيان شهواتها او جماداً فى كبح جماح اهوائها ؟ الا يعد هذا من اشد ضروب القسوة ؟ الا يعتبر من اكبر انواع الاسر ؟ يقولون ولم لا تشير بحجب الرجال . أليس حجبك للنساء عنواناً على هضمك حقوقهن ؟ اقول حيث ثبت انه لا مناص من عزل الرجال عن النساء — انظر فصولنا السابقة واللاحقة — وان وظيفة المرأة منزلية محضة وان اشتغالها خارج بيتها خلل اجتماعى خطير بخلاف الرجل فان شؤون حياته تقتضى المحاولات الخارجية لزمنا اتباع اخف الضررين ليس الا . والا لو قام احد اصحاب الافكار وابتكر شيئاً يكلفه الرجال

لقطع هجومهم عن المرأة فان المسلمين اول الخاضعين لذلك التكليف فى سبيل صيانة هذا الجنس الرقيق . تقول جريدة المقطم : « لأنه فى الهيئة الاجتماعية لا يثبت للحجاب فضل فى حفظ العفاف والشاهد على ذلك انه ليس بين الكتاب كاتب يدعى ان بنات المدن المتحجبات اعف واطهر من بنات الريف اللاتى لا يحتجبن وان عرض الفلاحة والبدوية غير مصون كعرض المحجبة . » نقول لا ينكر احد ذلك ولكن لا يحسن ان يغيب عن فكرنا ان الفلاحة والبدوية المكشوفتين هما فى احط ادوار تنازع البقاء والحرب المعاشية وقد أثبتت البسيكولوجيا (علم النفس) ان الانسان وهو فى تلك الحالة لا يكاد يفكر الا فيما يحفظ شخصه من العطب وبناء على هذا فمثل هاته النسوة ليس لديهن وقت تثور عليهن فيه عوامل اللهو وترغمهن على الخضوع لمؤثرات اهوائهن فتراهن يشتغلن مع ازواجهن او آبائهن طول النهار حتى اذا جاء الليل طالبتهن اجسامهن

بالراحة من جهادهن الهائل ولذلك ترى الفلاحة او البدوية بمجرد نوالها ما يغنيها من المال تجعل همها الاول وضع الحجاب على وجهها والتستر عن اعين الرجال .

اما قول المقطم : « ولما كان الرجل هو العنصر المهاجم لفضيلة العفاف عند انحلال ربط الآداب والمرأة هي المدافعة عنها كما قدمنافالعقل يقتضي تقوية قواها العقلية مع قواها الادبية وتوسيع ادراكها واختبارها حتى تعرف كيف تحفظ منزلتها من الفضيلة والكمال » فنجيب عنه بقولنا : ان هذا النوع من التربية يستحيل ان يعطى لكل امرأة بل لن ينال الا بنات المثرين فقط لأنه يستدعى سنوات عديدة فى المدارس تستلزم ثقل البنت ذهباً وبذلك يبقى اكثر من تسعة اعشار البنات عارياً من مثل ذلك التهذيب الفلسفى اى معرضات للانصياع لحيل المنصر المهاجم اى الرجل وبناء عليه فلا يصح ان يبنى على هذا قاعدة عمرانية عمومية ومع ذلك فان هذا الحجاب المعنوى الذى يشير اليه انصارالابتذال

اشد على المرأة من ذلك الحجاب الرقيق بما لا يقدر .
فانظر كيف بلغ اجحاف الرجال بالنساء ! يعترفون بانها المهجوم عليها من العنصر القوى ومع ذلك يريدون ان لا تسترعه بمانع مادي يستوقفه عند حده بل يريدون ذلك الحجاب ادبياً محضاً اى من النوع الذى يحجب الفلاسفة عن محبة الدنيا الفانية ويحول بينهم وبين هوى نفوسهم اعنى يريدون ان تكون المرأة ملكاً لا يطاوع همسة من همسات بشريته ولو كانت مهجوماً عليها من كل جانب :

لماذا لا يهبون المرأة حجابها المادى لتكتفى هى والرجل مؤونة هذا الجهاد الهائل ؟ لماذا لا يوفرون على المرأة وقتها الذى فيه يلزم ان تصارع فيه هـذا الرجل الظالم فى ميدان هذه الحياة الكدرة ؟ يقول قائل لقد غلوت غلواً كبيراً وافرطت فى دفاعك افراطاً شديداً واتيت بما يؤخذ منه ان ليس للرجال شغل شاغل ولا همّ متواصل الا التحايل على النساء واغراءهن مع ان

التربية تعمل العجائب على نفس الانسان والمدنية تكسبه من شرف النفس وعلو الهمة الخلال الحسان الخ الخ

تقول هذه الفاظ نسمعها ولا نرى مدلولاتها فى اى بقعة من بقاع الارض . ولو صح ان التربية والتهذيب تقوم مقام الحدود المادية فى كبح افراطات الانسان وتعدياته لصحت نظريات المذاهب المتطرفة بأسرها فانهم يقولون ايضاً ان ذلك القانون القائم والقانونيين الذين يقدسونه ويحترمونه وتلك السلطة التى تهيمن على مقادير البشر ليست الا موانع تمنع رقيهم فى مدارج الكمال الصورى والمعنوى . ولكن لو خلى الانسان لتأثير مواهبه الفطرية لنمت فيه العواطف الفاضلة من ذاتها وبتأثير الفواعل الطبيعية المنتشرة فى الكون وماتت فيه كل تلك الاهواء الخارجة عن حدود الاعتدال بتأثير تلك الفواعل الطبيعية ايضاً . ويقولون ان هذه القوانين التى تزعمون انها تقيم دعائم العدل فى البلاد وتسوى بين افراد العباد وتردع الظالمين عن الظلم

والاجحاف وتكبيح جماح المعتدين عن تخطى حدود الانصاف والانتصاف لا أثر لها الا زيادة عدد المجرمين ونشر القسوة والخشونة بين العالمين . قلنا لو صح ان التربية تقوم مقام الحدود المادية فى تعديل خلق الانسان اصحت كل نظرية تستند عليها فى تحقيق نفسها

اما انا فاقول أرنى أمة من الأمم منعت التربية فيها هذا الرجل القاسى عن الانصياع لامياله البهيمية ووقفت دون مقارفته لمطالبه الحيوانية ؟ هذا هو التاريخ بين ايدينا وهـذه الامم والنحل امام اعيننا وكلها ادلة ناطقة شاهدة بان التربية لم تمنع الرجل يوماً واحـداً عن غشيان القبائح واتيان المنكرات ولم تلين فؤاده الحديدى لايثار الفضيلات على الرذيلات . ولو كنا ممن يتسلى بالخيالات لعلقنا على التربية وحدها اكثر مما يعلق غيرنا ولكنا نحب ان لا نتخطى دائرة التجارب الحيوية قيد شبر ما دمنا نحب ان نقول ما يسمع وننشد ما يمكن الحصول عليه

دونك مثالاً محسوساً يريك ان تربية الانسان وحدها مع انطلاق امياله عن الحدود وانفراط مواهبه عن القيود غير كافية فى تحسين حاله التحسين المطلوب . وذلك انك ترى الرجل فى بلاد المدنية ينهى عن تماطى الخمر وهو طفل فى البيت وفتى فى المدرسة ورجل فى العالم بواسطة الجرائد والمجلات والكتب والخطباء والوعاظ ويرى بعينيه ضحاياها الفظيعة ويحس من نفسه بالفقر والفاقة والمرض ويقدم اليه صور الاعضاء التى نتكت بها من جسم غيره فى شكل يذهب باللب رعباً ومع ذلك تراه منكباً عليها بائعاً حياته فى سبيلها مترقياً فيها يوماً بعد يوم . فماذا عملت التربية واين اثر التهذيب ؟ أليس هذا دليلاً حسياً يراه كل ناظر على ان هذا العنصر المهاجم (الرجل) لا تستوقفه التربية عند حده مهما بلغت من علو الشأن الا اذا شفعت بمانع مادى يمنعه عن مقارفة المقاذر والجرى فى اعقاب الدنايا ؟ واذا كان كلف العنصر المهاجم بلغت هذا المبلغ بالنسبة للخمر

وليس لها من تركيبه مطالب فالى اى حدّ يبلغ هـذا الاندفاع وراء شهواته البهيمة التى لها من تركيبه سائق شديد الشكيمة ؟

بناء على كل هذا فالمسلم لا يحجب امرأته اسراً لها ولا احتقاراً لكرامتها ولا عدم ثقة بها ولكن انفة عليها وحماية لها من هذا العنصر المهاجم الذى دل التاريخ على انه هو الذى يغرى المرأة وهى التى تدافع عن نفسها دفاع الابطال . والمرأة المسلمة لا تحتجب علامة على انها ذليلة حقيرة غير موثوق بآدابها بل اشارة الى كونها عزيزة الجانب منيعة الحوزة مدافعة عن نفسها ضد العنصر المهاجم بسلاحين قويين بآدابها المعنوية وحجبها المادية ليكون يأس الرجل عنها تاما من كل وجه . هل بعد هذا ينصح الرجل لامرأته بخلع الحجاب او تستحسن هى خلعه من تلقاء ذاتها ؟

يستهجن بعض الناس الحجاب ويعده بقية من بقايا التوحش كما يستهجن بعض اصحاب التطرف فى

اوروبا السلطة والحكومة والقوانين ويعدونها بقية من بقايا الهمجية الاولى ولكنا لا نعلق على استحسان بعض الناس او استهجانهم قواعد اجتماعيـة نسير على موجبها فان من الامم من يستهجن بياض الاسنان ويصبغونها بالسواد ومنهم من يستحسن وشم الجسم كله ويعده من احسن ضروب الزينة ولكن العقل والطبيعة لهما الشأن الاول في تبرير اعمال الانسان فلنعرض احوالنا عليهما دائماً واحوال الانسانيـة كما قلنا مدرسة كلية يتعلم الانسان فيها كلما يلائمه وما لا يلائمه

واذا استهجن بعض الناس الحجاب وعدوه اسراً فان اصحاب الحجاب يستهجنون الابتذال والتبرج ويعدونه اشد من ذلك . ونحن بعد ما تبين لنا ان الحجاب علامة العزة واباء النفس وانه الضامن الوحيد لاستقلال المرأة وسعادتها ننظر الآن هل هو مانع كمال المرأة ؟

الفصل العاشر

هل الحجاب مانع كمال المرأة

عهدنا الانسان فى كل دور من ادوار حياته ان احب شيئاً لم يصعب عليه اقامة الف دليل على حسنه وجماله واذا كره شيئاً لم يعز عليه ان يطبق الدنيا ادلة على قبحه وفساده ولولا ان حال الوجود شاهد عادل لاصبحت الحقائق ابعد شىء عن الانسان فى هذا العالم « وكان الانسان اكثر شىء جدلا »

يقول حضرة مؤلف (المرأة الجديدة) : «اما «الحجاب فضرره انه يحرم المرأة من حريتها الفطرية» «ويمنعها من استكمال تربيتها ويعوقها عن كسب» «معاشها عند الضرورة ويحرم الزوجين من لذة الحياة» «العقلية والادبية ولا يتأتى معه وجود امهات قادرات» «على تربية اولادهن . وبه تكون الامة كانسان» «اصيب بالشلل فى احد شقيه» اما انا فاقول : اما

الحجاب (بناءً على براهينى الحسية السابقة) فقوائده انه يمتع المرأة بحريتها الحقيقية وقد علمت ما هى تلك الحرية . ويمكنها من استكمال تربية نفسها تربية اموية . ويعوقها عن مشاركة الرجال فى اعمالهم وهو الامر الذى نخر عظم هذه المدنية المادية . بشهادة علمائها فى القارتين الاوربية والاميريكية . ويجبر اهلها وحكومتها على ضمانة معاشها بالطرق الحكمية . ويمتع الزوجين بلذة الحياة الزوجية . ويتأتى معه وجود امهات قادرات على تربية اولادهن تربية اسلامية . وبه تكون الامة كانسان صحيح البنية له اعضاء ظاهرية واخرى باطنية

ونحن ايضاً كان يمكننا بغاية السهولة ان نقول : اى مصلحة للرجل اعظم من ان يعيش وبجانبه رفيقه تلازمه فى الليل والنهار فى الاقامة والسفر فى الصحة والمرض فى السراء والضراء رفيقة ذات عقل وادب عارفة بحاجات الحياة كلها تهتم بكل شيء يمس بمصلحة زوجها ومستقبل اولادها تدبر ثروته وتحافظ على

صحته وتدافع عن شرفه وتروج اعماله وتذكره بواجباته وتنبهه الى حقوقه وتعرف انها باجتهادها تجد فى منفعتها كما تجد فى منفعة زوجها واولادها؛

« وهل يسعد رجل لا يكون بجانبه امرأة يهبها حياته وتشخص الكمال بصداقتها امام عينيه فيعجب بها ويتمنى رضاها ويتوسل اليها بفاضل الاعمال ويدنو منها بعقائل الصفات ومكارم الاخلاق . صديقة تزين بيته وتبهج قلبه وتملأ اوقاته وتذيب همومه ؟

قلنا كان يمكننا نحن ايضاً ان نقول مثل هذا الكلام لانه احسن ما يأخذ بالفؤاد ولكننا فى مقام عمل وتحقيق لا فى مقام تمن وتأميل فانه لا يوجد فى المسكونة رجل الا وفى مخيلته مثل هذه الامانى وزيادة ولكنه لا يرى لها ادنى تحقق فى الخارج لان مقاليد الوجود ليست بيد الانسان ولو نال كل متمن امنيته لما وجدت على ظهر الارض رجلاً يشكو من شيء مطلقاً . ولو كان اصلاح الاحوال الشخصية يتأتى بمثل هذه الوسائل لكان الأمر

اسهل ما يكون على الكاتب فقد كنا نستطيع ان نقول مثلاً : اى مصلحة للرجل اعظم من ان يعيش فى وسط حديقة غناء فيها قصر يناطح السماء وبين يديه من الخدم والاتباع ما ينتظرون اول اشارة تصدر منه لترويح نفسه وتفريج غمه وان يكون واحداً من اصحاب الهمم العالية والافكار السامية فيؤدى لجامعته وملته اشرف الخدم التى تخلد لصاحبها فى بطون التواريخ اسما يضرب به المثل ويتخذ مثالاً للحث على العمل وان يكون له اولاد يربيهم على مبادئه الشريفة تربية ترشحهم لمثل ماهو فيه من طيب الحياة وعلو المقام . وان يهبه الله حب الاعتدال فى جميع اموره فيعيش معيشة الاتقياء فى وسط ذلك النعيم العظيم فيحتمى هو واولاده واهل بيته شر الامراض والاسقام ليعيش عيش السعداء ويموت موت الشهداء

لا شك ان كل انسان تقع لديه هذه الامانى موقع الاستحسان التام ويود لو اطلت فى شرح امثال هذه العبارات لموافقتها لميله تمام الموافقة ولكن قل لى بعيشك

كم من الناس فى هذا العالم بلغوا الى هذه الدرجة من السعادة وكم منهم يصح ان نقول عنه انه كاد يحصلها

انقسم الفلاسفة بعدشدة التدبر الى قسمين عظيمين قسم يدعي ان ليس فى هذا العالم راحة على وجه الاطلاق وان الحياة كلها اكدار واوصاب وآلام واتعاب فزهدوا فيها زهد اليائسين . وقسم رأى غير ذلك فقالوا ان فى الحياة حسنات وسيئات وان السعيد من عرف كيف يستفيد من حسناتها على قدر الامكان وكيف يتوارى عن سيئاتها جهد المستطاع فهو طول حياته بين هذين التيارين المتماكسين يتوارى عن هذا ويأخذ جرعة من ذاك حتى ينتهى وجوده من هذا العالم ويصعد الى عوالم اخرى تنتظره فيها نتائج جهاده الحيوى الطويل من هناء متيم او شقاء مستديم

ونحن بالطبع لانميل الى الشق الاول لما فى تعاليمهم من المنافاة للبداهة المحسوسة واما الشق الثانى فهو الجدير بالنظر والروية الخليق بأن يتخذ اسلوباً فى هذه الحياة

الارضيةولكن ما أشد تكاليفه على هذا الانسان الضعيف الذي قد تلتبس عليه اوجه السعادة والشقاوة فيتجنب الاولى ويسعى للثانية فيقع فيما كان يظن انه يهرب منه ويتهالك فى البعد عنه !

لاخير فى هذا الوجود الا وهو ممزوج بشر فمن استطاع ان يتقى ذلك الخير من كل ما فيه من الشر عاش حقيقة عيشة السعداء ونال مقاوم اصحاب الصفاء ولكن كيف يتأتى ذلك وهو ليس مستقلا بنفسه ولا قائماً بذاته فى جميع شؤون حياته . يلوح له الخير فى عمل فتبدو له من مشاركيه فى الوجود موانع وعقبات لو خطى واحداً منها قام امامه غيره حتى ينتهي وجوده قبل ان تلوح له بارقة الامل من مطلوبه . الا ترى معي ان كثيراً من الناس يرون الخير كل الخير فى شيء فيلجؤون رغم انفهم الى تجنبه ليس لكونهم غير قادرين عليه ولكن لما يقوم امامهم من الموانع الوسطية والعقبات الاجتماعية. هذه الشؤون كلها قد تملأ قلب الانسان امتعاضاً وكدرا

وتذهب به مذاهب من الفكر شديدة الاثر على تركيبه ولكنه لو رجع الى نفسه رجوع الثابت الجاش وألقى بطرفه الى قبلة من بيده مقاليد السموات والارض واستنزل من جنابه روح الطمأنينة على نفسه آب وكله اعتقاد بأنه تعالى قد اتقن كل ماصنع واحسن فيما ابدع وقضى ان يكون الخير والشر من لوازم هذا العالم الارضى لامحالة لحكمة بالغة ومقصد عظيم (ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون) فمن استطاع ان يعتدل بين هذه الزوابع المتماكسة نال خير الابد ومن مال ذات اليمين او ذات الشمال وتمنى ما لا ينال كان حسابه عند ربه

ليس يحب الانسان فقط ان تكون له زوجة صالحة او ان تمشى بجانبه بغير حجاب بل يتمنى ان تكون حالته اصلح من ذلك : يتمنى ان لايمسه الشر ولا يقرب منه الموت . يتمنى ان ينعدم الفقر وتزول الامراض . يتمنى ان لا يرى مايكره فى بنى وطنه وبنى نوعه : ولكن هيهات لابد من شر ولا بد من موت ولا بد من فقر ولا بد

من مكروه ؛ ولا بد للانسان من ان يضغط على حريته ويحرم من لذته لكي ينجو من كثير من الويلات التى لا تندفع بغير ذلك

انا لا انكر ان فى الحجاب شراً ولكني اعتقد انه مانع من شر اكبر فهو بهذه الصفة يعتبر خيراً كما انى لا انكر ان تسلح الامم ضد بعضها شر ولكنى لا انكر انه دافع لشر اكبر فهو بتلك الصفة يعتبر خيراً ايضاً . فالواجب علينا معشر الناس ان لا نتابع اميال انفسنا فى كل شيء فان اكثر ما نطلبه لا نناله وفى بعض ما نناله اشياء ما كنا نتوقع حدوثها ولو تجلت لنا قبل تمنيها فى مظاهرها لكنا بعدنا عنها بعد المشرقين

انى أرى كثيراً من الذين يتكلمون على المرأة يتخيلون امرأة كاملة فى وسط رجال كاملين وفى وجود لا نقص فيه فيهبونها من الاوصاف والنعوت الجميلة ما يجعلها النموذج الخيالى المبرأ من شوب النقائص على وجه الاطلاق : كأن تكون كاملة فى جمالها وطبائعها قرة

عين زوجها واهلها مربية عارفة بواجبات وظيفتها تؤدى اعمالها البيتية على اتم نسق واقوم منوال ثم تهب جزءاً ثميناً من وقتها فى تحسين حال الامة من جهة الخارج بمشاركتها للعلماء فى ابحاثهم وللفلاسفة فى اخلاقياتهم وللرحالات فى مكتشفاتهم. وبالاختصار تكون كل شىء سواء كان فى الداخل او الخارج نعم حبذا لو كان الأمر كذلك ولكن لقوانين الحياة سير غير ما نظنه ولشؤون الوجود ادوار قد لاتخطر لأعقلنا على بال ولذلك نرى كثيراً من كتابات الكتاب تسقط الى الحضيض ولا يكون لها اثر يذكر فى الخارج. اما نحن فنرى ان من الواجب علينا عند الكلام على الاحوال الاجتماعية ان نلم أولاً بماهية الوجود الذى نحن فيه وبمقدار النقص والكمال فى سائر احواله وبعلاقة كليهما باحوال الانسان وأطواره ليكون حكمنا سليماً من الخطأ ونصائحنا مجردة عن الخيالات التي لاتتحقق. فاذا تكلمنا على المرأة مثلا يلزمنا قبل كل شىء ان نشبع افكارنا باننا نتكلم على المرأة

(الآدمية) الموجودة بين شعب كل افراده (آدميون) لهم نزوات ونزغات واهواء ونقائص وانا فى عالم ارضى غير مبرأ من الشرور والمصائب. لاشك اننا قبل التكلم على المرأة لو شبعنا افكارنا بما ذكرنا هدأت سورة تحمسنا وملكنا افكارنا وتصوراتنا وكتبنا مالا يجافى سنة الوجود ولا يعارض طبيعته وكان لكلامنا من التأثير وحسن الأثر ما يجعلنا نحمد مغبة التعب فى التحرير وابداء النصيحة

يقولون: للحجاب ثلاث مضار مهمة لها على المرأة آثار رديئة جدا. اولاها: انه يضعف صحتها ويعرضها للأمراض وضعف الاعصاب ومتى ضعفت الاعصاب اختل التوازن فى القوى الادبية وبنوا على ذلك ان المرأة المحجبة يجب ان تكون أسيرة شهواتها لأن سلامة الاعصاب اهم اعوان الانسان على ضبط نفسه وضعفها اكبر الاسباب التى تجعل الانسان العوبة فى يد شهواته ثانيها: ان الحجاب مانع للخاطب من رؤية وجه

مخطوبته وهو السبب الكبير فى كثرة الطلاق وعدم الوفاق

ثالثها: انه يمنع المرأة عن التهذب والتعلم ويصدها عن متابعة اميالها فى تمية قواها العقلية والادبية فى بيوت التعليم

فلنرد هذه الثلاث شبه فنقول: النساء المحجبات لسن بمريضات ولا ضعيفات الاعصاب بل هن فى المجموع اقوى من النساء المكشوفات بكثير وهذه القضية يستطيع كل شرقى ان يحكم عليها بمجرد النظر. وقدمضى على المسلمات نحو من ثلاثة عشر قرناً وهن محجبات مصونات فلو كان الحجاب يحدث فيهن ضعفاً من اى نوع كان لوجب ان يتوارثه النساء والرجال جيلاً فجيلاً حتى يكون المسلم والمسلمة اليوم مثالى الضعف وخور القوة لان القواعد (الباتولوجية) تقتضى ذلك ولكنا نرى العكس: نرى ابناء النساء المحجبات اقوى جسماً من رجال النساء المكشوفات. ومع ذلك فان الاحصاء

الصحى لا يدلنا على زيادة الوفيات فى النساء ولو كان الحجاب مضراً بالصحة لاصبحت الوفيات منهن اكثر من وفيات الرجال طبعاً وهذا خلاف المشاهد اما قولهم ان النساء المحجوبات اسيرات لشهواتهن فذلك مما لا ينطبق على علم (البسيكولوجيا) العملية . فانه لا يغيب عن اى انسان ان الميل الى الشهوات لا يحصل فى الانسان بشدة الا بوجوده بين مثاراته ولا يغلب العقل الا اذا وجد سهولة الوصول الى مطلوبه . فاى المرأتين اذن تكون اشد تعرضاً لمثارات الشهوة . المحجبة ام المكشوفة : المتعالية عن الاختلاط بالرجال بغيرة دينية ورائية شديدة ام المختلطة بهم ؟ أليس الثانية طبعاً . اللهم ان علم البسيكولوجيا اكبر شهيد عندنا بهذه الحقيقة . هذا من جهة

ومن جهة اخرى فان لسهولة وصول الانسان الى مشتهياته تأثيراً كبيراً على نفسه من حيث انه يضعف فيه الانفة من غشيانها ويميت فيه عامل الاشمئزاز منها

اليك مثالاً لذلك : هب ان شابين فى درجة واحدة من السن والتهذيب تعلما فى مدرسة واحدة وتحت سماء مشتركة . احدهما بعيد عن عائلته لا يرى بينه وبين التمتع باميالة غير ما لديه من التهذيب وخشيته من غوائل الفضيحة . واما الآخر فمحاط بعائلته ومهيمن عليه فى سائر تصرفاته . دونه حجب بينه وبين شهواته ان ازال حجاباً بدى له غيره وان تخطى عقبه قام دونه سواها فاى هذين الشابين يكون ميله الى الشهوات اشد وكلفه بلذاته اكثر ؟ اليس الاول بالبداهة وبدون تردد ؟ هل ترده صحته الجسمية وانتظام مجموعه العصبي ؟ الا تكون تلك الصحة عوناً له فى تلك الحالة على غشيان الشهوة واتيانها بكل وسيلة كما هو مشاهد محسوس ؟ ان لم يكن الامر كذلك لزم ان يكون كل صحيح الجسم صحيح الفؤاد وهو خلاف الواقع فان كل اصحاب الخلاعة والفسق والفجور هم من الاقوياء والاشداء غالباً . وربما يقال ان هؤلاء لا تهذيب لديهم . فلو كانوا جمعوا الى صحة الجسم

صحة التهذيب العقلى لقام تهذيبهم حاجزاً منيعاً امام كل شين اخلاقي . نقول ان المشاهد بأعين ان كثيراً من اصحاب الخلاعة واللهو من المهذبين المتنورين ومن بينهم عدد عديد من الذين تلقوا اسس الآداب من اوروبا ومع ذلك فهم اشد غشياناً للشهوات من سواهم . اما تلك التربية التي ترد جماح الانسان عن كل ما يخدش وجه الانسانية فلا توجد الا عند افراد يعبر عنهم بالفلاسفة والحكماء ولا يخفاك انها لا تحصل الا بكثرة الدرس واشباع القلب بحقائق الاشياء واما السواد الاعظم من الامم فلن يكون له نصيب من هذا التهذيب العالى مطلقاً حتى ولا فى المستقبل البعيد . اقول هذا وامامى الحوادث تشهدلى ولكل قارئ بصر وبصيرة يستطيع بهما ان يعزز الحق بشهادته

اذا تقرر هذا فالمرأة المصونة اقل ميلاً للشهوات واقل تفكراً فيها من سواها يقيناً ولا سبيل للجدل فى هذه القضية

اما من جهة ضعف الاعصاب وقلة توازن القوة العقلية بسببه فانى اراه لدى نساء الغرب اكثر منه لدى نساء الشرق فان ذلك الضعف العصبي لا يأتى فقط من التحجب والتصون فان اسبابه اكثر من ان تعد منها الهموم والغموم والفقر والفاقة والحب والهيام وغير ذلك . ومن يتصفح اى مجموعة طبية يجد ان ذلك الداء فى نساء الغرب اصبح امراً عادياً . ومع ذلك فان لضعف الاعصاب في الامة علامات كثيرة جداً اهمها كثرة الانتحار فقد اثبت (لومبروزو) وغيره من من البحاثين فى الجرائم ان الانسان لا يرتكب جريمة القتل او الانتحار وهو صحيح القوة العقلية ابداً . وحيث ان صحة القوة العقلية تابعة لصحة الاعصاب يكون كثرة الانتحار علامة عملية ترشدنا الى أى العالمين نساءهم اضعف اعصاباً

أثبتت مجلة المجلات (مجلد ١١) من الاحصائيات الرسمية فى ابطاليا انه حصل فيها من سنة ١٨٨٩ الى سنة

١٨٩٣ اى فى مدة ٥ سنين (٥٦٩) انتحاراً من النساء .
وحصل فى فرنسا فى تلك المدة عينها (٥٨٦٩) انتحاراً من
النساء اذا علمت هذا فارنى الانتحار الذى يحصل فى بلادنا
الشرقية عموماً والمصرية خصوصاً. والى اى سبب نسبت
هذا الانتحار مثل الحب او الفقر او غيره فانه دليل حسى
على الجبن النفسانى وضعف الاعصاب لا محالة . اذن
فنساء الشرق اقوى اعصاباً من نساء الغرب واقوى
منهن على التغلب على انفسهن وقهرها

واذا كان ميل الانسان للشهوات وعدم قدرته
على كبح نفسه تابع مباشرة لضعف الاعصاب فيكون
الشرقيون عموماً اقوى اعصاباً من الغربيين فان هؤلاء
الاخيرين مع مالديهم من التهذيب المنتشر بين سائر طبقاتهم
لم يستطيعوا ان يقلعوا عن عادة السكر مع ما فيها من
القبح وما تجره عليهم من الويلات الشديدة كل يوم
وكل ساعة على النفس والعقل والمال . وقس عليها
سائر الشهوات النفسية الاخرى التى هى فى الغرب اكثر

تشبثاً بالنفوس منها فى الشرق

اما قولهم انه مانع من رؤية المخطوبة وبناءهم كثرة الطلاق وشكاوى النساء على هذا السبب فنرده بقولنا ان الشكاية من كثرة الطلاق وظلم الرجال للنساء ليس خاصاً بالمسلمين بل هو فى بلاد المدنية اكثر منه لدينا فنوجه انظار القارئ الى الفصل الثانى عشر فان فيه الكفاية من هذا الموضوع

اما قولهم انه يمنع المرأة من التهذب والتعلم فليس بصحيح لان البنت تستطيع ان تمكث فى المدارس من السنة السابعة من عمرها الى السنة الثانية عشر ولا يخفى ان هذه الخمس سنوات كافيـة لابلاغ عقلها الى درجة طيبة جداً من التهذيب وليس يعزب على همم الغيورين من الامة ان يوجدوا مدارس عالية تكون كل معلماتها من النساء فيتأتى للبنات ان يحضرنها بدون نقاب فى الداخل حتى اذا خرجن منها وضعن على اوجههن الحجاب حتى يصلن الى بيوتهن . واذا اعتلوا بعدم وجود معلمات

لهذه الطبقة العالية فذلك يكون من باب التعلل الذى لا يقبل فان الهمم تعمل كل شيء لو كان هناك ميل فى النفس . ومع ذلك فمن العبث ان نسعى لعمل كل شيء في وقت واحد . كل عمـل لا يبدو الا صغيراً ثم ينمو شيئاً فشيئاً حتى يبلغ الكمال التام

اذا تقرر هذا كله نقول ان الحجاب ليس بمفسد للصحة ولا بمضعف للأعصاب ولا بمثير للاهواء بل هو حاجز مادى دون كثير من المفاسد والمشائن لو اضيف اليه حاجز ادبى يقويه ويساعده على فعـله تلاشت من بين البشر كثير من الويلات التي اصبحت جراحاً دامية فى جسم تلك المدنية المادية

الفصل الحادي عشر

هل يزول الحجاب ؟

ليس زوال الحجاب ووقوعنا فى كل الاخطار التى ذكرناها بالامر المستحيل فقد ازالت هذه المدنية المادية

بلألا ها الكاذب وزخرفها الساحر كثيراً من الحجب
الضرورية قبله وقد رأى الشرقيون قاطبة ان عدداً عديداً
من تلك الحجب التى تلاشت باسم شىء سموه الحرية الشخصية
كانت لازمة من لوازم كمال البشر . ولا غرابة فى ذلك
فان هذه المدنية نتيجة ضغط سابق وبنت حجب حديدية
آلمت اهلها قروناً عديدة فلما تهيأ لها الخلاص كافحت
كل شىء فيه معنى الضغط والحجر ووجهت كل همتها
الى فك كل قيد بدون ان تكلف نفسها البحث الى
ارجاع الافراط او التفريط الى منهاج الاعتدال

هذه الحالة تشاهد فى كل اطوار هذه المدنية
ببسيط من الانتقاد والتأمل واليك بعض الشواهد :

غلا رؤساء الدين فى بعض أدوار حياتهم فأساؤا
التصرف فى سلطتهم الروحانية واستأثروا النفوس لسطوتهم
الدينية فلما جاءت المدنية لم ترجعهم الى حدهم المعتدل بل
سعت فى ملاشاتهم وملاشاة الدين بالمرة ولم يزل دوى
تلك الصدمة يطير لنا على جناح البرق كل يوم

تطرف القائمون على معقولاتهم في ازمنة الاستبداد حتى حرموا عليهم التمتع بمزايا الفكر وثمرات العقل فلما جاءت المدنية لم تشأ ان تقف بالناس موقف القسط بل اباحت الحرية الفكرية لكل ناعق وناعر حتى تهجم سخاف العقول والافكار الى التطاول الى ما يعلو عن متناول عقولهم فانكروا القدرة الالهية والعقائد الفكرية ولم تزل اذيالهم تنعق بالويل الى اليوم

اعتدى اصحاب السلطان في بعض أدوار التاريخ فخرجوا عن دوائر العقل الى متاهة الاستبداد والاستعباد فلما جاءت المدنية لم تقنع بكبح جماحهم وارجاعهم عند حدهم بل مالت الى محو السلطة بالكلية وتقليد الهامجات من النعم في حريتها من نير الحكومة واخبار هذه الفرق لا تحتاج الى بيان

تشدد الحافظون لربط الاخلاق في الحجر على كل ما ينافي الادب حتى كرّهوا الناس الاعمال الدنيوية وزهدوهم في الحياة الارضية فلما جاءت المدنية لم تكتف

بالرجوع بالناس الى قسطاس العدل المستقيم بل قذفت بهم الى مجالات الاباحة المطلقة باسم الحرية الشخصية حتى صار يرتكب باسم المدنيــة جرائم يستنكفها الحيوان الاعجم ويمجها البهيم لو استطاع ان يتصورها تنطس الناس فى بعض احيانهم بالضغط على المرأة حتى وضعوا فى فمها الاقفال الحديدية وحرموا عليها اكل اللحم والضحك وادعوا ان ليس لها روحاً فلما جاءت المدنيــة لم ترض بالتوسط فى اعطاء المرأة حقوقها بل القت بها الى باحات الاطلاق حتى صارت اليوم تؤلف الكتب البذيئة تطالب فيها محو الزواج بالمرة وتركها تجرى خلف اهوائها النفسية

هذه هى احوال تلك المدنية العجيبة تتجلى لكل متأمل فيها ونحن معشر الشرقيين الذين قضى علينا باحتذاء مثالها فى كل شأن بدون نقـد ولا تبصر نرى انفسنا مرغمين فى كثير من الاوقات الى متابعتها فيما نعلم حقيقة انه مضر بنا كل الضرر بل فاصم لعرى جامعتنا فصماً نهائياً وما دام الحال جارياً على هذا المنوال ولم يقم فينا

رجال ذوو افئدة عظيمة واعين تقوى على مقاومة هذه المظاهر السحرية فان النتيجة لا تكون محمودة

فاحجاب المضروب على النساء المسلمات اليوم لا يستحيل اذاً زواله بالكيفية التى زال بها حجاب الآداب والكمال من وجوه اكثر الشبان بل والشيوخ ايضاً فبعد ان كان -- كما يروى لنا الكبار شرب الدخان والجلوس على القهاوى محرماً على الشبان والاعيان بل والاوساط صرنا الآن نرى ونسمع ان اجمل شكل من اشكال التمدن هو ان يطلق للشبان عنان الحرية لدرجة يحسون بها بنت الحان على مرأى من المارة فى المحلات العمومية ويمشى الواحد من الرعاع بجانب المومس فى اشهر الطرق وبين يدى اولى الناس بالمحافظة على الآداب العمومية بدون ان يجد ممانعاً يقمع شهواته البهيمية

كل هذه القاذورات لم تنشأ الا بزوال حجب كانت مسدولة عليها وفضلاً عن كونها لم تنفع البلاد بشىء نراها شديدة الامتصاص لحيويتها قاسية الهدم

لبناتها حتى آل الامر الى ما يعلم الناس اجمعون . فلا يبعد اذن ان يلفح الناس لافح من سموم التساهل فيتركون الحجاب يتلاشى شيئاً فشيئاً كما يشاهد الآن من حال بعض النسوة فيكون هذا الامر نهاية البلاء على هيئتنا الاجتماعية — لا قدر الله — لانه يقتضي لامحالة وجود كل العلل العنصرية التي درسناها في هذا المؤلف . وهذه العلل باجتماعها الى ما لدينا من الادواء الاخرى تكوّن في جسم الامة داء دوياً لا احب ان اشخص اخطاره هنا تشاؤماً منه وغلواً في الهرب عنه

ولكن طُبع المسلم على عدم اليأس . خلق كريم هبّ على روحه من روح الديانة الاسلامية . اراني مع كل ماقدمته اعتمد كثيراً على ما اشرب به الفؤاد المسلم من الحيوية المتأصلة فيه والانفة الشديدة الشكيمة التي تعد مميزاً من مميزاته فاؤمل ان تلك النزعات الكريمة التي انامها في نفوسنا هذا السيل الجارف من البدع الجديد المتلاشي ستستيقظ يوماً من الايام تأنفة الى ذلك الكمال

الملكوتى الذى غمر اباءنا الاولين بوارف ظله الالهى فتخلع هذا الثوب العارى المزوق وتكز بقدميها هذه البدع الشهوية وكزة الغائر على كمال فطرته الانسانية فتتبع العدل والوسط فى شأن النساء والحجاب لنكون آخر امة حافظت على الكمال ودافعت عنه دفاع الابطال كما كنا اول امة رسمته للعالمين وجعلت اعلامه بينة للسالكين

الفصل الثاني عشر

هل مرأة المدنية المادية هي المرأة الكاملة ؟

ان اقل نظرة فيما قدمناه يكفى للدلالة على ان اصحاب تلك المدنية المادية يعترفون علناً بان المرأة الكاملة لم توجد لديهم للآن وان الاحوال الاجتماعية التي هم متورطون فيها فضلاً عن كونها لم توصل المرأة الى كمالها المنتظر قد ذهبت بها عن وظيفتها مذهباً ينافى ماتستدعيه نواميس الخليقة ومطالب الحياة الطيبة ونحن لو كنا ممن يفتتنون

بالظواهر المموهة لكنا اول القائلين بلزوم احتذاء المرأة المسلمة حذو تلك المرأة ولكن قبل ان نخط حرفاً واحداً فى كتابة موضوعنا هذا مزقنا كل ستار يحول بيننا وبين حقيقة الواقع ونظرنا للمسألة بعين العلم والطبيعة فرأينا ان للمرأة فى الحياة الانسانية شأناً غير شأنها الذى هى فيه الآن ثم نظرنا فيما كتبه مؤسسو تلك المدنية بايديهم فوجدناهم يعترفون معنا علنا بهذه الحقيقة الجليلة وانهم يسعون بجميع قواهم فى درء كل تلك العلل تدريجاً وعلى حسب ما يقتضيه ذلك الشكل من التمدن الموقت . واظن ان ما قدمناه من اقوالهم العديدة يكفى لان يوافقنا كل قارىء بان حقيقة المسألة هى غير ما يراه بعينيه من الظواهر او يسمعه باذنيه من المدائح . ولو ذهب بنا الانتصار لرأينا الى حد نكذب معه اصحاب الدار انفسهم وهم ادرى باحوالها من سواهم نكون ولا شك قد ارتكبنا أعظم شطط يستدعى نتائج شديدة الالم

على ان المسألة فى ذاتها بسيطة ولا تحتاج الى جهاد نفسى للوصول الى لبابها فان التدبر البسيط فى احوال الكائنات ومراتبها يرينا عيانا ان الله جل شأنه قد وهب كل كائن من الاعضاء والقابلية ما يحتاج اليه فى امر معاشه ووظيفته الخاصة التي يرتبط بها كماله وانه قد يستطيع ذلك الكائن ان يخرج عن دائرته الخاصة حينا من الاحيان فتستحسنه العين برهة من الزمان لالكونه مستأهلاً لذلك ولكن لمحبة النفس لرؤية الجديد من الاشياء ولكنها لما تعتاد على رؤيته قليلا وتقف على عصيانه لاحكام تركيبه تمجه وترى سائر عيوبه مجسمة. مثال ذلك: انا اذا سمعنا انه قد نبغت فينا امرأة سياسية نجد فى انفسنا من البشر والسرور ما يحملنا الى تحبيذ تلك السياسية الجديدة واعتبارها مثالاً كاملا فى عالم النساء ونظل نختال عجباً كلما رأينا خطبة من خطبها فى الجرائد ولكن لو نبغ بعدها سياسية وسياسيات وطبيعية وطبيعيات وفلكية وفلكيات ومهندسة ومهندسات

واشعرتنا الطبيعة بلسان احداثها ان هناك امراً ستحدثه علينا من جراء هذا البدع الجديد يتغير فى الحال فكرنا ونصبح ناقمين على تلك المسترجلات غير راضين عنهن بوجه من الوجوه : ولكن ماذا يغنى تأسفنا فى ذلك الوقت ؟ان يفيدنا شيئاً لان مقتضيات الاحوال تكون حينئذ قد ادخلتنا الى شكل جديد من اشكال الاجتماع ونجد انفسنا فى ملتقى تيارين خطرين : ان حجرنا على النساء ماهن فيه نكون قد زدنا الشر شراً لان حالتنا العمرانية كما قلنا تكون غيرما نتوهمه الآن وان تركناهن فى تيارهن استشرى الكلم واستعصى الداء وعرضنا انفسنا الى عين الامراض التى يشكو منها علماء تلك الامم كما نقلناه عنهم فى هذا المؤلف

هذا يصح ان يؤخذ مثالا لشأننا وشأن الاوربيين وذلك اننا بمجرد سماعنا ان هنالك مهندسات ودكتورات يأخذنا العجب ويداخلنا البشر فينسياننا ما يجب ان نتذكره فنعمل على احداث مثله حالاً

غير حاسبين للمستقبل حساباً طاعنين على كل من يقاوم تلك الحركة ناسبين اليه التعصب والرضوخ لسلطة الوهم والوراثة . ان قلنا لهم يا قومنا ان اولئك الغربيين الذين تستشهدون باحوالهم قد شبعوا من تلك الدكتورات والمهندسات وسئموا هذه الالقاب بالمرة وبدا لهم ما لم يكونوا يحتسبون من شر التمرد على احكام الكون وانهم قاموا يكتبون وينذرون ويصيحون (وهاهي كتاباتهم وانذاراتهم) بلزوم تغيير تلك الحالة تغييراً ذريعاً . ان قلنا لهم ذلك قالوا ذلك وهم باطل وضرب من ضروب المغالطة في المناظرة ويذهب بهم الاعجاب بما سمعوه عن نجاح النساء في ضروب المعيشة الى تكذيب كل قائل كائناً من كان

ولكن ما العمل هذه سنة طبيعية وان شئت فقل فتنة عمرانية تؤثر من الشعوب القوية على الشعوب الضعيفة تأثير السحر واكثر . حتى ان كثيراً من صفات الشرقيين اصبحت تقليدية محضة لو سألتهم عنها لما

وجدوا جواباً . اشيع مثال وابسطه يمكنك ان تراه فى كل لحظة سلام بعض الناس لبعضهم بلغة اجنبية لا يدرون منها حرفاً واحداً ولا يحسنون النطق به لو تكلفوه هذا شان العامة فى كل امة متأخرة ولكن الخاصة يجب ان يترفعوا عن هذا الحضيض وان يكونوا اعلام هدى يؤوب اليهم التائه واراكين تقى يعتصم اليهم الهارب من وجه الفتن

تذرع حضرة مؤلف (المرأة الجديدة) بسوء حالة النساء فى الشرق وبكثرة الطلاق الى الحملة على عادة الحجاب وتشهيرها بالاسواء ونصح بلزوم رفعه بحجة انه علة جل هذه العلل ومثيرها ولكنا نقول خلاف ذلك نقول ان الحجاب وحده هو الذى ضمن هاته النسوة من الوقوع فى شر مما هن فيه ولولاه لكان شأنهن احط بكثير مما هو عليه . ونقول حيث ان الحجاب حمى المرأة وهى جاهلة حقيرة من شر كثير من امراض اجتماعية مهلكة سيكون هو نفسه اكبر ضامن لها للتربع

فى دست وظيفتها الطبيعية واحجى هاد لنوالها لكمالها متى تعلمت ولو تعلما متوسطاً •

لماذا كل هذه الحيرة ؟ أليس الوجود وحوادثه شهود عدول ؟ لو كان كشف الوجه هو الكفيل الوحيد لعدم وقوع النساء فى العلل التى تنسب الى الحجاب لعدمت تلك العلل من الغرب او لكانت فيه قليلة لا تذكر مع ان الامر بخلاف ذلك فان المطلع على احوال العالم يرى ان تلك العلل التى يشكو منها محررو النساء هى بعينها موجودة فى تلك المدنية المادية

أما من جهة الفقر المدقع وسوء الحال الذى يقع فيه النساء فهو فى بلاد تلك المدنية اشد منه فى بلادنا بشهادة حضرة مؤلف (المرأة الجديدة) نفسه فانه قال ان التعداد الاخير يثبت ان فى القطر المصرى يوجد ٦٣٧٣١ امرأة محترفة واما فى فرنسا فيوجد زيادة عن خمسة ملايين امرأة مضطرة للعمل ولو عملنا النسبة بينهما لرأينا ان فى كل ١٠٠ امرأة فرنساوية يوجد ١٤ امرأة

محترفة واما فى كل ١٠٠ امرأة مصرية فلا يوجد الا نصف امرأة وهذا دليل محسوس على ان انياب الفاقة فى احسن بلاد المدنية اشد قسوة على المرأة منها فى بلادنا المصرية واما قوله عقب هذا ان هؤلاء النساء مضطرات الى العمل بدون ان يكون فى اعمالهن ضرر يلحق بعائلاتهن فمما يعارض البداهة والحس وشهادات العمرانيين انفسهم ونحن فى مثل الخلاف فى هذه المسئلة يجب علينا ان نسأل اصحاب الدار انفسهم من ذوى الدراية بعلم الاقتصاد وقد مرّ بك قول الفيلسوف الاقتصادى جول سيمون الذى له اكبر المآثر العلمية فى القرن التاسع عشر فانه صاح بملء فيه فى وسط اوروبا بان المعامل قد سلخت المرأة من عائلتها سلخاً وقوضت دعائم الحياة المنزلية تقويضاً وليس جول سيمون وحده هو الذى ادرك هذه الحقيقة فان سائر العمرانيين يقولون قوله بدون استثناء ونحن لزيادة الاقناع نأتى هنا بترجمة نبذة للعلامة الانجليزى (سامويل سمايلس) كتبها فى كتابه المسمى (الاخلاق)

قال حضرته[1] : « ان النظام الذى يقضى بتشغيل المرأة فى الفابريكا مهما نشأ عنه من الثروة للبلاد فان نتيجته كانت هادمة لبناء الحياة المنزلية لانه هاجم هيكل المنزل وقوض اركان العائلة ومزق الروابط الاجتماعية . فانه بسلبه للزوجة من زوجها والاولاد من اقاربهم صار بنوع خاص لانتيجة له الا تسفيه اخلاق المرأة لان وظيفة المرأة الحقيقية هى القيام بالواجبات المنزلية مثل ترتيب مسكنها وتربية عائلتها والاقتصاد فى وسائل معيشتها مع القيام بالاحتياجات العائلية ولكن المعامل تسلخها من كل هذه الواجبات بحيث اصبحت المنازل غير منازل واضحت الاولاد تشب على عدم التربيـة

---

(١) (ساموپل سمايلس) هذا يعد من اراكين النهضة المدنية الانجليزية وواحداً من كبار محبي رقي النوع الانسانى وقد كتب كتباً كثيرة فى مواضيع عمرانية مهمة ترجم اغلبها الى اللغة الفرنساوية

وتلقى فى زوايا الاهمال وطفئت المحبة الزوجية وخرجت
المرأة عن كونها الزوجة الظريفة والقرينة المحبة للرجل
وصارت زميلته فى العمل والمشاق وباتت معرضة
للتأثيرات التى تمحو غالباً التواضع الفكرى والاخلاقى
الذى عليه مدار حفظ الفضيلة » من هنا يتضح ان
الفقر المدقع وسوء الحال بين نساء المغرب اشد منه عند
نساء المشرق بما لا يقدر ويتضح أيضاً ان اولئك النسوة
بعملهن خارج بيتهن قد صرن الى حالة يرثى لها ويستعاذ
منها وليس لنا ان نكذب اصحاب الدار فى هذا الشأن ولو
كان الحجاب سبب سعادة المرأة أو بالاقل مخفف
لآلامها لما كان امر تلك النسوة كما وصفناه هنا مطلقاً
اما من جهة كثرة الطلاق فانه اصبح فى اكثر
البلاد مدنية ورواء شديد الخطر لدرجة قلق لها عمرانيوهم
اشد القلق ولم يستطيعوا ايقافها عند حد . واليك احصاء
دقيقاً بقلم الكاتب الاميريكى الشهير (لوسن) كتبها فى
مجلة المجلات الفرنساوية (مجلد ٢٥) بناءً على طلبها. جاء منه:

ثبت ان المحاكم فى مملكة (مساشوزيت) سجلت فى سنة ١٨٩٤ من اوراق الطلاق (١٦٢٢) ورقة بعد ان كان فى سنة قبلها (٧٧٠) بمعنى انه آخذ فى الزيادة بسرعة . وكان يوجد فى هذه المملكة فى سنة ١٨٨٧ بين كل (١٠٥) اشخاص زواج واحد فصار فى سنة ١٨٩٤ بين كل (١٢٢) شخصاً زواج واحد يعنى قل الزواج ايضاً

اما فى مملكة (اهيو) من الممالك المتحدة ايضاً فانا نجد الارقام المكدرة بعينها فقد سجلت المحاكم فى سنة ١٨٦٥ أي قبل ٣٥ سنة (٢٢١٩٨) زواجاً حصل فيها (٨٣٧) طلقة يعنى انه يخص كل (٢٦ ½) شخصاً تقريباً طلقة واحدة واما فى سنة ١٨٩٤ فسجلت المحاكم (٣٣٨٥٨) زواجاً وبلغ الطلاق (٢٧٥٣) أي ان فى كل (١٢) زواجاً ونصف طلقة

وشوهدان عدد الطلاق فيها فى مدة عشر سنين بلغ زيادة عن معدله بمقدار (١١٠٠٠) ونقص الزواج

عن معدله بمقدار (٨٤٨٨٩) . قال الكاتب عقب هذا
الاحصاء ما نصه : « ان مملكة (اهيو) كانت لا تنقص »
« (٩٤٢٥٦) عائلة ان لم تكن الحياة الاميريكية قد »
اتبعت تيار المرأة الجديدة »

وفى (كاليفورنيا) احدى الممالك المتحدة الاميريكية
حصل فى الفى زواج فى سنة ١٨٩٧ (٦٤١) طلقة أى
فى كل ثلاث عقود طلقة واحدة

واليك احصاء رسمياً للطلاق فى كثير من ولايات
الممالك المتحدة بناء على ما نقله (لوسن) فى مجلة المجلات
المجلد الموما اليه

فى مملكة (الكونيكوت) يحصل طلقة واحدة
فى كل ١٠ عقود

فى مملكة (المساشوزيت) يحصل طلقة واحدة
فى كل ٢١ عقداً

فى مملكة (روسلان) يحصل طلقة واحدة
فى كل (١٣) عقداً

فى مملكة (شيكاغو) يحصل طلقة واحـدة فى كل (٨) عقود

وثبت بالاحصاء ان محكمة شيكاغو تسجل كل سـنة (٣٥٠) طلاقاً مع ان الاهالى لا يزيدون عن (٢٣٠٠٠٠). قال (لوسن) عقب ذلك كله:

« فالطلاق ينتشر اذن للدرجة القصوى والمدهش »
« ان (٨٠) فى المـائة من طلبات الطلاق آتية من »
« فى النسـاء مما يثبت ان ليس للرجل الا دور ضعيف »
« فى حل عروة الزواج وذلك لان الطلاق يخجله جداً »
« ولذلك تراه اذا تعب من امرأته يبحث عن سواها »
« ولا يسعى فى انفصاله من الاولى الا اذا طالبته الثانية »
« بالزواج »

وقد وصف هذا الكاتب سهولة الطلاق هناك فقال: « وكثير من الازواج لا يعرفون ان نساءهم »
« طلقنهم الا بعد ان يتزوجن ثانياً »

أما سبب الطلاق فهو فى الغالب هجر الرجال

للنساء وتركهن بدون نفقة قال المستر (لوسن) المتقدم ذكره فى المجلة نفسها : « عند افتتاح المحكمة العليا فى »
« السنة الماضية (أي سنة ١٨٩٧) فى (بوستون) »
« ملئت المحكمة ثلاثة ايام متوالية بالناس رجالاً ونساء »
« وكلهم يطلب الطلاق فامضى فى الاسبوع الاول »
« (٧٥) طلاقاً وكان السبب على العموم فى طلبه هو »
« هجر الازواج نساءهم » انتهى

هذا الاحصاء وهذه الشكاوى المرة تثبت ان العلة التي يشكو منها حضرة مؤلف (المرأة الجديدة) موجودة فى أعظم البلاد مدنية ورقياً ولو كان سببها الحجاب لما وجدت هناك بهذه الدرجة المخيفة المهددة. نقول المخيفة المهددة لانه ليس من شأننا ان ننكر ذلك بعد ما شهد بها اصحاب الدار انفسهم فقد جاء فى مجلة المجلات تحت الاحصاء المتقدم هذه الجملة : « فالحرقة الاجتماعية تحترق اذن »
« ولكن ليس من طرفيها فقط بل قد سعوا فى اشعالها »
« من وسطها ايضاً . ولا شك عندنا ان المرأة الجديدة »

« هى التي تسعى فى هدم العائلة » انتهى

النظر البسيط فى ما قدمناه يقنعنا لا محالة باننا لا ينقصنا الا شيء من التهذيب فقط لازالة كل مايشتكى منه مع دوام الحجاب لانه الضامن الوحيد لاستقلال المرأة والكافل الفرد لعدم اخراج الرجل لها عند حدودها الطبيعية التى بها سعادتها وبدونها شقاؤها وهلكتها كما اثبتتنا ذلك عمرانيا . فبالتربيـة حتى البسيطة يزول جهل الامهات ويصرن اهـلاً لاحسان شأن عائلاتهن وجديرات باعجاب بعولتهن

بهذه التربية البسيطة تتلاشى كل الارتباكات العلية او تقل جداً وتصبح العائلة مهبط السعادة والهناء ومتنسم الرغد وطيب الحياة ودليلنا المحسوس على ذلك ندرة تلك الارتباكات فى الطبقات الوسطى المتعلمة من هذه الامة بينما نرى تلك الارتباكات الزوجية فى بلاد المدنية المادية آخذة فى الانتشار يوماً بعد يوم بشهادة الاحصاء السابق وغيره مما اضربنا عنه هنا لعدم التطويل ولا

مشاحة فى ان اولئك المطلقين والمطلقات فى بلاد الغرب هم ارقى علماً فى الجملة من طبقاتنا التى يندر فيها الطلاق جداً . فاذا كان سبب كثرة الطلاق عندنا جهل النساء وسوء حالتهن فلماذا يحصل بين اولئك النسوة الغربيات المتعلمات بتلك الدرجة المهددة بالتلاشى ؟ هـذه النظرة البسيطة تكفى للدلالة بأن لكثرة الطلاق والارتباكات المنزلية اسباباً اخرى غير الجهل وما ينتجه الحجاب من المضار

ثم لو كان سبب ترك الرجال لازواجهم بدون نفقة سببه عندنا امتهان الرجل للمرأة واعتباره اياها من ضمن سقط المتاع كان يجب ان يزول هذا الداء بزوال سببه عند اصحاب المدنية المادية فانهم وخصوصاً عامتهم يدعون انهم يحترمون النساء غاية الاحترام ويعطونها اكبر قسط من الاجلال والاعظام . ولكن الاحصائيات تدلنا كما قدمنا ان السبب على العموم فى طلبات الطلاق هو هجر الازواج لنسائهم بدون نفقة . فلأى علة تنسب هذا الاثر

السيء ؟ الا امتهانهم للنساء وهم كما يدعون يحترمونهم
ويضحون انفسهم من اجلهن . ام لقلة تهذيبهم وهم كما نعلم
ليس فيهم واحد فى الالف يجهل الكتابة والقراءة ؟ اذن
وجب ان يكون لهذا المعلول علة غير ذلك

يقولون ان الحجاب مانع قوى من اختيار الرجل
للمرأة التي تلائمه وحائل دون معرفته بأخلاقها وآدابها
ويبنون على ذلك كثرة الطلاق عندنا . نقول :

(اولاً) ان الطلاق عند طبقاتنا العليا والوسطى
المتنورة يكاد يكون معدوماً ولو كان سببه عدم اختبار
الرجل لطباع المرأة قبل زواجه بها لوجود الحجاب لكان
يجب ان يكون الطلاق فى هاتين الطبقتين مساوياً لمثله فى
الطبقة السفلى والمشاهد عكس ذلك

(ثانياً) لو كان اختبار الرجل لطباع المرأة قبل
الزواج هو الكافل لعدم الطلاق فهؤلاء اصحاب المدنية
الغربية لا حجاب لديهم وحاصلون على تلك النعمة فلماذا
يكثر الطلاق فيهم ويزداد لدرجة أثبتت لعقلائهم ان

الخطر محدق بهم من جراء ذلك

(ثالثاً) اذا كان الزواج الذى يبعث اليه الحب هو الضامن الفرد لبقاء عقد الزوجية ولا يتأتى حصول هذا الحب الا بنبذ الحجاب فهؤلاء اصحاب المدنية الغربية متمتعون بهذه النعمة ويندر فيهم من يتزوج بدون ان يحب فلماذا يكثر فيهم الطلاق لهذه الدرجة

كل هذه النقط البارزة يجب ان يضعها الباحث المدقق نصب عينيه ليعلم ماهية العلة وكنه سببها ولا يجوز له ان يقنع بهذا فقط بل يلزمه ان يدرس سائر المقتضيات الاجتماعية التي تقتضى تلك الاحوال واضدادها مع مقارنتها ببعضها وتحليلها تحليلاً علمياً دقيقاً ليصل الى العلة الرئيسية للمرض المفروض . اما نحن فنقول ان كل هذه الاعراض عندنا سببها عدم تهذب المرأة والرجل معاً ونرى ان قليلاً منه يكفي لتحسين حالتنا الاجتماعية تحسيناً يحسدنا عليه كل الامم ودليلي المحسوس على ذلك قلة وجود هذه الاعراض عند الطبقات

المتهذبة ولو ازددنا تهذباً لاتى علينا حين لا يمر بفكر عمرانينا مثل هذه الارتباكات المشوشة . فنحن اذن لا نعتبر كل هذه الاحوال الا من قبيل الاعراض السطحية السريعة الزوال التى لا تحوجنا الى سحق جمعيتنا وبنائها من جديد . ونعتبر الحجاب حافظاً رحمانياً حمانا من تأصل هذه الاعراض واستحالتها الى امراض عضوية فى جسمنا الاجتماعى

اما سبب تلك الاعراض فى المدنية الغربية فامراض عضوية ذات شأن خطير جداً يعوز اصلاحها انقلابات شديدة هائلة كما يقر بذلك كل عالم بما هنالك . كتب العلامة (ايذوليه) استاذ الفلسفة فى مدرسة (كوندرسيه) البارزية فى مقدمة كتاب (الابطال وديانة الابطال) للعلامة الفيلسوف (كارليل) الانجليزى يقول : « ان

الازمة الحاضرة شديدة الخطر جداً ومع ذلك فان هذا الحال ليس باول شفق عم ارجاء اوروبا » ثم استطرد فى شرح ما انتاب اوروبا من الانقلابات الكثيرة التى

كانت دائما محفوفة بالاضطرابات الاجتماعية الشديدة ثم استشهد على لزوم حدوث تلك الانقلابات ومايصحبها من الاضطرابات بقول (كارليل) الذى نصه : «يجب ان يزول كل تافه وكاذب ويحل محله الصدق اياكان نوعه وبأى وسيلة كانت سواء كان بسيادة المخاوف أو بشدائد الثورة الفرنساوية او باى شىء آخر فانه يجب ان نعود الى الحقيقة . وهذه الحقيقة كما قلت لاتأتى إلاّ لابسة ثوباً من نار جهنم لانه لا يمكن الحصول عليها الا بهذه الصفة»

اذا تقرر هذا فمن العجيب ان يوجد منا من لا يعلق على هذه الانذارات اهمية ما ويريدون ان نقلد اصحاب هذه المدنيـة فى كل شىء وخصوصاً فى مسألة النساء مع انها اعظم ما يشغل بال علمائهم ونصحائهم حتى انهم ليصيحون فى اعظم جرائدهم قائلين : « ان خرقتنا الاجتماعية ليست مشتعلة من طرفيها فقط بل من وسطها ايضاً » كما نقلناه عن مجلة المجلات . ويكتبون

فى اعظم دوائر معارفهم امثال هذه الجملة : « فكيف »
« الخلاص من هذه الحالة التى تهددنا بسقوط سريع »
« ان لم نقل بهبوط لا دواء له » كما نقلناه عن دائرة
معارف القرن التاسع عشر

فليعلم المسلمون ان وراء هذه الصيحات امور
كبرى وطامات عظمى فليقتنعوا بتهذيب بناتهم ولا
يخرجوهن عن دائرة الفطرة مهما غيَّر العالمون فى مراتب
الكائنات وبدلوا وليقفوا وقفة المتفرج على فعل نواميس
الحكمة الالهية على المفرطين والمفرّطين فان الله جل
شأنه بمنحنا هذه الشريعة السمحاء الملائمة لنظام الخليقة
سيستشهدنا يوم القيامة على العالمين حيث قال عز شأنه :
« وكذلك جعلنا كم امة وسطاً لتكونوا شهداء على »
« الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »

الفصل الثالث عشر

اى اساليب التعليم اصلح لحال النساء

نحن بعد ان حللنا مسألة المرأة ذلك التحليل العلمى الذى رأيته فى هذا الكتاب ونظرنا اليها من كل اوجهها بمنظار العلم الصحيح وعلمنا بعد ذلك كله ماهية تلك الحالة جيداً وتحققنا ان مالدينا من تلك الاعراض البسيطة لا يعوزه الا التهذيب المؤسس على قواعد حكيمة وجب علينا ان نبحث على احكم اسلوب نؤدى به للمرأة هذا الواجب التهذيبي عملاً بقول مؤسس العمران الالهي صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ونحن لو رأينا ذلك الاسلوب الصحيح عند اية امة من الامم مهما كانت منافية لنا ديناً ودنيا فلا نتأخر عن تقليدها فيه بدون تعصب طاعة لترجمان الحكمة الالهية صلى الله عليه وسلم : « خذ الحكمة ولا يضرك من اى وعاء خرجت » ولكن من جهة

اخرى لايليق بنا بناء على هذا التصريح ان نتهافت على اخذ شيء قبل سبر غوره بمسبار العقل والحكمة عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن كيس فطن حذر » فان وجدنا ضالتنا عند اية امة من الامم اخذناها على الرأس والعين ونكون قد قمنا بواجب ديني عظيم فان « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها انى وجدها » وان لم نجدها وجب علينا ان نعمل قرائحنا ومواهبنا فى ابتكار ذلك الاسلوب المنطبق على الفضيلة والفطرة وان نستنزل على ارواحنا روح الرحمة الالهية لتهدينا الى احسن السبل واقومها فان الله اكرم من ان يتركنا نجاهد وراء الحقيقة عبثاً فقد وعدنا ووعده الحق بالهداية حيث قال : «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين» وانى لاأرى ان انتقاد اساليب التعليم لدى الامم يستدعى منا كبير تعب فان عقلاء القوم انفسهم يقرون علناً بان طرائقهم فى تهذيب النساء جرّت عليهم ويلات كثيرة وانها محتاجة الى تحوير وتبديل عظيمين للغاية . فيكون

تقليدهم فيها والحالة هذه ضرباً من ضروب عدم التبصر الذى لا يغتفر بل امراً لا يقبله العقل ابداً فان عصيان نصائح المجربين ليس معناه الا الاستسلام الى اشد المصائب والاستهداف لاسنة المحن والنوائب

ونحن لاجل ان نثبت ان طرائق التعليم هناك مضرة للدرجة القصوى وغير منطبقة على احكام الخلقة النسائية سننتقى اكثر امم الارض تمدناً واعلاهن كعباً فى العمران ثم نسأل اعلم علمائهم فى هذا الشأن مما لا يختلف اثنان فى غيرتهم على اممهم وفى غزارة مادتهم من بين اقرانهم

قال الفليسوف العمرانى الشهير (جول سيمون) الذى لا يجهل احد مكانته عند الامة الفرنساوية خصوصاً وسائر الامم عموماً . قال فى مجلة المجلات (مجلد ١٨) :
« كان الناس فى سنة ١٨٤٨ يشكون من عدم الاعتناء »
« بتهذيب النساء وتربيتهن ولكنهم بالعكس يشكون »
« اليوم من ان ذلك التهذيب قد بلغ حد الافراط . »
« نعم لا نشك فى اننا خرجنا من تفريط الى افراط هائل »

ثم استطرد بعد ذلك الى فساد نتائج ذلك الاسلوب من التعليم الذى يجعل المرأة رجلاً وصاح باعلى صوته قائلاً : « يجب ان المرأة تبقى مرأة » ثم سرد بعد ذلك ما طرأ على العائلات من الفساد كما نقلنا عنه ذلك فى فصولنا المتقدمة . هذا فيما يختص بتهذيب بنات الامة الفرنساوية اما الامة الانجليزية فنستشهد على عدم صلاحية اسلوبها فى تعليم البنات بما كتبه العلامة الشهير (ساموئيل سمايلس) ذلك الرجل صاحب المؤلفات الجمة التى ترجم اكثرها الى اللغة الفرنساوية وغيرها قال فى كتابه (الاخلاق) ما يأتى :« ان اعظم ما كانت تمدح به المرأة الشريفة ربة العائلة عند الرومانيين القدماء هو انها كانت ملازمة بيتها تغزل فيه وقد قيل فى عصرنا ان غاية ما يلزم ان تعلمه المرأة من الكيمياء هو ان تعرف حفظ القدر فى حالة الغليان ومن علم الجغرافيا معرفة الغرف المختلفة فى بيتها . على ان (بايرون) الذى كانت امياله نحو النساء غير سديدة اعترف بانه يود

ان لا يوجد فى مكتبتها غير التوراة وكتاب الطباخة .
إلا ان هذا الرأى بالنسبة لاخلاق المرأة وتهذيبها يعتبر حرجاً ضيقاً للغاية وغير معقول . هذا من جهة .
اما من جهة اخرى فان الرأى المضاد له وهو الشائع الآن جداً يعتبر جنونياً ولا ينطبق على نظام الطبيعة فانه يقضى بتهذيب المرأة لتكون بقدر الامكان مساوية للرجل بلا فرق بينهما الا فى الجنس اى مساوية له فى الحقوق والاصوات السياسية ومزاحمة له فى جميع معارك الحياة الوحشية وحب الذات للتنافس فى نوال مركز او قوة او نقود » انتهى

بقى علينا الامة الاميريكية فاليك بالنسبة لعدم صلاحية اسلوبها هي ايضاً شهادة الباحث المدقق (المستر لوسن) الاميريكى الذى كلفته مجلة المجلات الفرنساوية بكتابة فصل يشرح فيه حالة النساء فى الامة الاميريكية فلبي دعوتها وكتب لها مقالة طويلة ادرجتها فى (مجلد ٢٥) فدونك ماجاء فيها بالنسبة لتهذيب النساء قال بعد ان

اطال فى شرح حالة المدارس : « ولكن هذه المدارس يظهر انها انشئت لأجل الشابات اللاتى يردن الشغل بمعلوماتهن ولاجل ان يكن دكتورات واستاذات ولذلك تجد التهذيب فيها ضعيفاً (يعني التهذيب الخاص بالمرأة) ولكن الدراسة قوية . فتراهم يعلمونهن بالتدقيق علوم الكيمياء والطبيعة والرياضة ومع كل هذا تجد ان الشابة التى نالت قصب السبق فى العلوم والتى تضلعت فى جميع مواد البروجرام جاهلة للدرجة القصوى بابسط النظامات المنزلية »

هذه اقوال اصحاب الدار فبأي حجة نكذبهم ونصدق غيرهم . وعلى هذا فنحن لانستطيع ان نظل على فكرنا الاول من نصيحة المسلمين باتباع اى اسلوب من هذه الاساليب الغربية فى التهذيب الا اذا ضربنا بكل هذه الاقوال عرض الحائط واتهمنا كل طاعن على تلك الاساليب ولو كان من صميم القوم بالجهل الشائن او سوء النية . اذا راق فى اعيننا ذلك فهلم نقلد من شئنا

ونتشبه بمن اردنا واما ان حمانا حب الحق من ذلك يلزمنا اذن ان نعتبر بحالهم وندرأ عن انفسنا ماجره عليهم تسرعهم فى شؤونهم لكي لا نقول مثل ما يقول (جول سيمون) : « كنا نشكو من التفريط فى التعليم فصرنا نشكو من الافراط فيه »

خاتمة

نظرة اجمالية

انى وان كنت سلكت فى بحثي هذا جادة الاسلوب الحسى التجريبي الذى لا سبيل الى تكذيب نتائجه الا بتكذيب مقدماته المحسوسة المشاهدة بالعين الا انى اخشى ان يكون كثرة تقسيماتى لمواضيعه قد انست بعض قرائى كثيراً من النظريات التي هى كالاعمدة المتينة لضرورة احتجاب المرأة . لهذا اردت ان احصر تلك

النظريات في هذه الوريقات القليلة لتكون نظرة من التأمل بسيطة للاحاطة بشكلها الجملي دفعة واحدة تاركاً دقائقها التفصيلية الى ذاكرة القارىء او الى عنايتـه باستئناف المطالعة . اما نظرياتي التي قدمتها فهي :

١ : — المرأة أضعف من الرجل جسماً وأقل منه قبولا للعلم وليس فيها هذا الضعف المزدوج بقصـد اهباطها عن الرجل واخضاعها له ولكن لكون وظيفتها الخاصة لا تقتضي اكثر من هذا القدر . وهذه الحالة طبيعية فطرية بمعنى انه لا يتأتى ان تتصل المرأة مهما بذلت من المجهودات لان تساوي الرجل لاجسما ولا ادراكاً

٢ : — لكل كائن كمال خاص به وكمال المرأة ليس في صلابة عضلاتها ولا في اتساع دائرة معلوماتها بل في موهبة روحيـة متمت بها (اكثر من الرجل) . وهذه الموهبة هي شعورها الحي الدقيق واحساساتها وعواطفها الرقيقة للدرجة القصوى وفوق كل ذلك

استعدادها لتضحية نفسها فى سبيل الخير . فلو نمت هذه المواهب عندها على حسب قواعدها الصحيحة لاغنتها عما يحتاج اليه الرجل من الزند المتين والسيف الصقيل لتأييد حقوقه ولسمت بها هذه المواهب الى مكانة فى الهيئة الاجتماعية تحنى لها الرؤوس اجلالاً وتعظيماً ولكن قضى الله ان نمو هذه المواهب لا يتم الاَّ اذا كانت تحت قيادة الرجل ولو فاقته فيها واستطاعت ان تأسره بها . ولكنها لا تأسره بها لانها لو فعلت بطل مضاء سلاحها وزايلتها بهجة موهبتها فتقع فيما لا ترضاه لنفسها

٣ : — ان هذا الكمال لا تناله المرأة الا اذا كانت زوجة لرجل وأُماً لاطفال تربيهم تربية صحيحة . ليس من باب اعطاء الوظيفة لصاحبها فقط بل ان نمو ملكاتها وتهذب مواهبها لا يتأتى الا بذلك لانها خلقت لها جسماً وروحاً

٤ : — ان اشتغال المرأة فى اشغال الرجال قتلٌ لمواهبها واطفاءٌ لملكاتها واذهابٌ لبهجتها ومدعاة الى

هبوطها ومفسدة لتركيبها ومجلبة للخلل فى امتها . وان عمل المرأة الغربية خارج بيتها يعدها علماء بلادها جرحاً دامياً فى فؤاد الامة وأثراً من آثار اسر الرجال للمرأة ويعملون بكليتهم على تضييق دائرته

٥ : — ان الحجاب ضرورى للنساء لصلاح النوع الانسانى كله على العموم وصلاحها على الخصوص لانه ضمانة استقلالها وكفالة حريتها لا علامة ذلها وعنوان اسرها . وقلنا انه لا يمنع كمالها بل يهيئه وانه وان كان له شيء من المضار كما هى طبيعة كل شيء فان مزاياه وفوائده لا تقدر ومن اظهرها انه يجبر المرأة الى عدم تخطى دائرة وظيفتها الطبيعية التى فيها كل سعادتها ويوجهها لتنمية خصيصتها السامية التى هى سلاحها الوحيد فى هذه الحرب الحيوية

٦ : — المرأة فى المدنية المادية ليست كاملة ولا سائرة الى الكمال مهما ظهر لنا من روائها المزوق وان علماء بلادها يشكون من تلك الحالة ويسعون فى ايقاف سيرها

٧ : — ان طرق التعليم فى كل ممالك اوروبا واميركا غير صالحة للنسآء بشهادة أصحابها انفسهم

٨ : — ان تعاليم الديانة الاسلامية بالنسبة للمرأة موافقة لفطرتها تمام الموافقة فهي كالقالب التام التركيب لجميع خصائصها وملكاتها بمعنى ان تلك الخصائص لو نمت على حسب تلك التعاليم لبلغت **المرأة المسلمة** اعلا شأو يمكنها ان تبلغه بدون ان تتعدى حدودها الطبيعية

٩ : — لا ينقص **المرأة المسلمة** لكى تبلغ أكمل نقطة يمكن ان يناله جنسها الا تعلم مبادىء العلوم الضرورية ليس الآ

هذه تسع نظريات حصرتها فى ثلاثة عشر فصلا وقد اتيت فى اثباتها بمقررات العلوم التجريبية وأقاويل أعظم عمرانى العصر وما كتبه كبار اساطين المعلومات فى دوائر المعارف والتزمت فيها اسلوب الفلسفة العملية ما امكن مع ما فيه من المشقة والصعوبة وذلك لغرضين شريفين :

اولهما تقوية جانب انصار الحجاب لكي يثبتوا في دفاعهم عنه للنهاية وليعرفوا بالعمل ان الحق في جهتهم وان كل حركة في العالم مهما اختلفت مظاهرها متجهة لملاءمة الفطرة الانسانية في كل شأن من شؤون الحياة وان الفطرة هي ما جآء به ديننا الحنيف وليعلموا انهم ليسوا بشخصي ادوار التأخر على مراسح التعصب الذميم بدون علم ولا فهم ولكنهم حفظة الفطرة السليمة في وسط هذا البدع الجديد وانهم مهما كانوا متأخرين في مضمار الحياة المادية عن سواهم فليس ذلك لعلة عنصرية فيهم ولكنه لعرض يزول ببعض المجهودات البسيطة وانهم من هذه الحيثية اصلح للبقاء من اصحاب تلك المدنية التي شوّهت وجه الانسانية ومسخت الفطرة البشرية في كثير من جهاتها حتى سببت لذويها امراضاً يستحيل بقاؤهم بها كبير زمن

والغرض الثاني هو اقناع اخواننا اضداد الحجاب باننا لم ندافع عنه تعصباً ولا خضوعاً لسلطان العادات

ولا جرياً وراء محبة التقليد ولكن انتصاراً للفطرة التي هي الدين الاسلامي وتعضيداً للحق الصراح الذي هو حظ المسلم من كل هذا العالم عساهم ان يكفوا عن دفع الحجاب الى الدفاع عنه ويضموا اقلامهم الى اقلامنا لنتفرغ جميعاً الى مداواة الاعراض المرضية التي تؤلمنا ونؤدي بذلك اقدس واجب يفرضه علينا الضمير نحو الملة والامة وصلى الله على سيد الوجود محمد وآله وصحبه وتابعيه وسلم

تنبيه

انا لم نر بدا من تقسيم مؤلفنا هذا الى جزئين جزء رددنا فيه على كل الشبه التي وردت على الحجاب وغيره من تقاليد المرأة المسلمة وجزء آخر خصصناه لرد كل الاعتراضات التي وجهت ضد المدنية الاسلامية . والسبب الذي دعانا الى بسط القول في المدنية لهذه الدرجة هو ان بعض الكتاب اساء فهم قولنا انها كانت نموذج الكمال البشري فظن اننا نعني بالكمال البشري مايوازي اختراع مدافع المكسيم وبوم بوم وبنادق دم دم

وقنابل الديناميت والليديت وغير ذلك من آثار الصناعة والزخرف . لذلك رأينا ان نتكلم على ماهية الكمال البشرى وماهية الغرض الذي خلق له الانسان وماهية المدنيــة الفاضــلة التى توصله الى ذلك الكمال ثم درسنا انواع المدنيات المختلفة فلم نجد منها مايوصل الانسان الى سعادتيه الجثمانية والروحانية الا الديانة الاسلامية بالحس وبشهادة كل معلومات البشر

على ان هؤلاء الكتاب كانوا يكفوننا مؤنة الرد عليهـم من هذه الوجهة البديهية لو كانوا اطلعوا على ما كتبناه فى ١٨ جزءاً من (الحياة) وما كتبناه فى كتابنا (تطبيق الديانة الاسلامية على نواميس المدنية) وفى مؤلفنا (الحديقة الفكرية فى اثبات الله بالبراهين الطبيعية) فانهم لو طلعوا على كل هذا لعلموا اننا دافعنا عن حقيقتنا بالعلم والحس واننا لانجهل ناموس الترقى بل اننا اول من بسط الـكلام فيه وطبقه على آيات القرآن الشريف.

هدانا الله جميعاً الى ما فيه خير الامة والملة آمين

فهرست

صحيفة

٣ مقدمة

١٥ الفصل الأول : ما هي المرأة

٢٣ » الثاني : ماهي وظيفة المرأة الطبيعية

٣١ » الثالث : هل المرأة تساوى الرجل جسمياً

٤٤ » الرابع : هل يتأتى حرية المرأة على الصفة التي يريدونها لها

٧١ » الخامس : هل للنساء ان يشاركن الرجال فى الاعمال

٩٣ » السادس : هل فى طبيعة المرأة مايدل على تداخلها فى الاعمال الخارجية

١٠١ » السابع : هل يستمر تداخل النساء في اعمال الرجال فى بعض البلاد

١١٢ » الثامن : هل تحتجب المرأة عن الرجال

١٢٢ » التاسع : هل الحجاب علامة الاسر او هو ضمانة الحرية

١٤٨ » العاشر : هل الحجاب مانع كمال المرأة

صحيفة
١٦٥ الفصل الحادى عشر : هل يزول الحجاب
١٧١ » الثانى عشر : هل مرأة المدنية المادية هى المرأة الكاملة
١٩٢ » الثالث عشر : اي أساليب التعليم أصلح لحال النساء
١٩٨ خاتمة : نظرة اجمالية
٢٠٤ تنبيه